

دور الأسرة والمجتمع الغربي في تكوين خلفيات المستشرقين العقدية

The role of the family and Western society in forming the Orientalist doctrine

إعداد

انصاف بنت سعد بن مثيب المطيري

ENSAF SAAD MOTHEB AL MUTAIRI

جامعة الملك سعود- كلية التربية- قسم الدراسات الإسلامية- مسار العقيدة والمذاهب المعاصرة

Doi: 10.21608/jasis.2024.349990

استلام البحث	١٣ / ٢ / ٢٠٢٤
قبول البحث	٢٥ / ٢ / ٢٠٢٤

المطيري، انصاف بنت سعد بن مثيب (٢٠٢٤). دور الأسرة والمجتمع الغربي في تكوين خلفيات المستشرقين العقدية. ***المجلة العربية للدراسات الاسلامية والشرعية*** ، المؤسسة العربية للتربية والعلوم والآداب، مصر ، ٨(٢٨)، إبريـــل، ١٢٣- ١٦٠.

http://jasis.journals.ekb.eg

دور الأسرة والمجتمع الغربي في تكوين خلفيات المستشرقين العقدية

المستخلص:

درس معظم المستشرقون الإسلام، بقصد تشويهه والإساءة إليه، متأثرين بخلفياتهم وبيئاتهم التي نشأوا فيها وفي هذا البحث سيتم إلقاء الضوء على دور الأسرة والمجتمع في تكوين الخلفيات الدينية لدى المستشرقين، ولقد مرَّ تاريخ الفكر الأوروبي بصراعات فكرية وتقلبات حضارية كان لها أبرز الأثر في الإنتاج الفكري الاستشراقي، ولأن المستشرق ابن بيئته، وجزء من مجتمعه، فلا يمكن الفصل بين عرضهم للإسلام وواقعهم الاجتماعي الذي أثر فيهم بما فيه من تغيرات سياسية واجتماعية واقتصادية. وقد تأثرت الأسرة الغربية بعدة عوامل كانت بمثابة الضربات التي قوّضت الركن المقدس في حياة المجتمع الغربي منها؛ ظهور الفردية المطلقة وخضوع أنظمة الحياة الغربية بما فيها الأسرة إلى النظريات الحديثة ومن أبرزها النظرية الداروينية التي جرّدت الأسرة من أُطُرها الدينية. كذلك فإن المجتمع الغربي تأثر بمؤثرات داخلية منها؛ هيمنة الكنيسة الغربية وتأثر بمؤثرات خارجية؛ كالحروب الصليبية. وسيتم في هذا البحث ذكر دور الأسرة في تكوين خلفيات المستشرقين، وبيان أهم العوامل الداخلية والخارجية التي أثرت في المجتمع الغربي وأثر ذلك على المستشرقين في دراساتهم للإسلام.

Abstract:

Most Orientalists studied Islam, with the intention of distorting and insulting it, influenced by their backgrounds and the environments in which they grew up. In this research, light will be shed on the role of the family and society in forming the religious backgrounds of Orientalists. The history of European thought has gone through intellectual conflicts and cultural fluctuations that had the most significant impact on Orientalist intellectual production. Because the Orientalist was a child of his environment and a part of his society, it is not possible to separate their presentation of Islam from their social reality that affected them, including the political, social, and economic changes.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

وستكون خطة البحث على النحو التالي:
مقدمة ومبحثين جاء تقسيمهما كالتالي:
المبحث الأول: دور الأسرة الغربية وأثرها في تكوين خلفيات المستشرقين العقدية.
المطلب الأول: العوامل التي ساهمت في تفكيك روابط الأسرة الغربية:
المطلب الثاني: أثر الأسرة الغربية في تكوين خلفية المستشرق.
المبحث الثاني: دور البيئة والثقافة المجتمعية الغربية وأثرها في تكوين خلفيات المستشرقين العقدية.
المطلب الأول: المؤثرات الداخلية التي ساهمت في تكوين خلفيات المستشرقين العقدية.
المطلب الثاني: المؤثرات الخارجية التي ساهمت في تكوين خلفيات المستشرقين العقدية.
الخاتمة وأبرز النتائج

مقدمة:

درس معظم المستشرقون الإسلام، بقصد تشويهه والإساءة إليه، متأثرين بخلفياتهم وبيئاتهم التي نشأوا فيها. ففي الوقت الذي يتصف فيه الباحث الأوروبي أثناء دراسته للأديان والحضارات الأخرى بالاتزان، نراه يتنكر عند بحثه في الإسلام لهذا المنهج فتعمل المحاباة العاطفية فعلها في الرصانة الغربية بصورة تكاد تكون ثابتة ودائمة، فتضطرب وتختل. وهذه ظاهرة فكرية تحتاج في تفسيرها إلى تفهم الأسس النفسية لأقدم العلاقات الفكرية بين العالمين الإسلامي والغربي، ذلك لأن ما يفكر الغربيون فيه ويشعرون به نحو الإسلام اليوم، متأصل في انفعالات وتأثيرات ترجع إلى خبرات سابقة عميقة الجذور في الفكر الأوربي فهي تعود إلى فترة الحروب الصليبية والقرن الذي سبقها مباشرة، أي نهاية حقبة الألف سنة الأولى من التاريخ المسيحي والتي تم وصفها بالطفولة المبكرة للمدنية الغربية.

ولقد مرَّ تاريخ الفكر الأوروبي بصراعات فكرية وتقلبات حضارية كان لها أبرز الأثر في الإنتاج الفكري الاستشراقي، ولأن المستشرق ابن بيئته، وجزء من مجتمعه، فلا يمكن الفصل بين عرضهم للإسلام وواقعهم الاجتماعي الذي أثر فيهم بما فيه من تغيرات سياسية واجتماعية واقتصادية.

المبحث الأول: دور الأسرة الغربية وأثرها في تكوين خلفيات المستشرقين العقدية

الأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع، فإنها تعتمد في نموها ونشأتها على أعراف وتقاليد المجتمع الذي تنتمي إليه، فهي جزء من النسيج المجتمعي ونمط الحياة الاجتماعية، وهي الركن الأساسي في تحديد سلوكيات أفرادها، حيث إنها تتفاعل مع

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

الثقافة العامة للمجتمع المنتمية إليه، كما أن شخصية الفرد الثقافية تأخذ طبيعتها من المجتمع الذي تنتمي إليه.

وقد مرّ المجتمع الغربي بالعديد من التغيرات الجوهرية في التفكير والتحولات في المعتقدات والقيم والعادات والتقاليد، وتوالت هذه التحولات في فصول تتفاوت في حدتها، حتى وصلت في نهاية المطاف إلى نبذ الدين، وما جاء به أو منه، وعزله عن مجال الحياة والتطبيق بعد أن كان الرائد والموجة، مما اضطر العالم الغربي في القرن الخامس عشر وما بعده أن يستغرق في البحث في مجالات عدة، ليسد الفراغ الذي تعيشه أوروبا بعد ذلك التحوّل[١].

وسيتناول هذا البحث دور الأسرة والمجتمع في تكوين الخلفيات الدينية التي أثرت على المستشرقين المعاصرين في نظرتهم للإسلام وذلك من خلال:

الأسرة مشتقة من " أسر: الأسرة الدرع الحصينة.. وأسرة الرجل: عشيرته ورهطه الأدنون؛ لأنه يتقوى بهم ... الأسرة: عشيرة الرجل وأهل بيته"[٢].

والأسرة بالضم الدرع الحصينة والأسرة من الرجل الرهط الأدنون من عشيرته؛ لأنه
يتقوى بهم، والأسرة: مجموعة من الأفراد تجمع بينهم صلة القربى سواء أعاشوا تحت سقف واحد، أم لم يعيشوا، وتتألف الأسرة عادة من الأب والأم والأولاد..[٣]

وتمثل الأسرة الأساس الاجتماعي في تشكيل وبناء شخصية الأفراد داخل المجتمع والأمة، وهي بمثابة استمرار للوجود الإنساني، وباعتبارها وحدة متماسكة ذات هدف محدد، فإنها تمتلك القدرة على التأثير على المجتمع بأكمله؛ إذا صلحت صلح المجتمع كله وازدهر، وإذا فسدت عانى المجتمع كله من هذا الفساد.

وقد أكّد علماء التربية على أن الأسرة هي العامل الرئيس في قيادة التربية نحو النجاح، حيث تشير الدراسات التربوية أن القيم الأساسية في شخصية الإنسان تتكون في السنوات السبع الأولى، وأن ما يأتي بعد ذلك من مؤثرات تربوية هو تعميق وتأكيد لتلك القيم، وهذا يعني أن الأسرة هي المؤثر الأول والأكثر في شخصية أفراد المجتمع[٤].

---

[١] انظر: الوجيز في المذاهب الفكرية المعاصرة (عرض ونقد)، أحمد عبد العزيز الخلف، ص ١٤، مركز مطور للبحث العلمي، دار الأمام مسلم ط ١، ١٤٣٧، المدينة المنورة.

[٢] لسان العرب (٤/٢٠)، مادة (أسر).

[٣] موسوعة المورد العربية منير البعلبكي، ١/٨٤، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، مادة أسرة

[٤] انظر: التربية الأسرية في عصر العولمة، حمد بن عبد الله القميزي، جريدة الرياض، العدد ١٥٨٤٤.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

وفي المجتمعات الغربية كانت الأسرة -قبل ما يسمى بالثورة الصناعية- ذات قداسة خاصة. فالرباط بين الزوجين رباط مقدس ومحترم، لا يفرق بين الزوجين إلا الموت أو خيانة أحدهما للآخر. واعتبرت المسيحية الكاثوليكية الزواج واحداً من المقدَّسات السبع[٥].

وكان ما يسمى بالأسرة الممتدة أو الموسعة (Extended family) هو النمط السائد في المجتمعات الغربية، إذ أن الأسرة الموسعة كانت تشتمل في الغالب على ثلاثة أجيال، لكن هذه الحال لم تستمر بعد مرحلة الثورة الصناعية[٦] في القرن الثامن عشر الميلادي؛ حيث واجهت الأسرة تحديات كثيرة فيما يخص مفهومها ونظامها ووظيفتها.

المطلب الأول: العوامل التي ساهمت في تفكيك روابط الأسرة الغربية:

تأثرت الأسرة الغربية بعدة عوامل كانت بمثابة الضربات التي قوّضت الركن المقدس في حياة المجتمع الغربي في ذلك الوقت[٧] من أبرزها:

- تفكيك روابط الأسر الممتدة بسبب الهجرة والانتقال للعمل في المصانع الضخمة التي تسببت في انحسار الصناعات المنزلية الصغيرة التي كانت تقتات منها الأسر، مما أجبر أفراد العائلة الذين كانوا ينعمون بالعيش معاً إلى هجر عائلاتهم اضطراراً -سعياً إلى الرزق- والعيش في مكان آخر[٨].

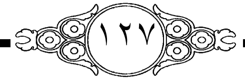
---

[٥] وهي التعميد والاعتراف، وطقس القربان المقدس، والمصالحة أو الكفارة، ودهن المرضى والزواج، والأوامر المقدسة.

[٦] اصطلاح يشير إلى التغيير الكبير الذي حدث في حياة البشر خاصة في الغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. بدأت هذه الثورة في بريطانيا في القرن الثامن عشر ثم انتقلت إلى أجزاء من أوروبا وأمريكا الشمالية في القرن التاسع عشر، ثم إلى غيرها من البلدان الأوروبية. أدت الثورة الصناعية إلى زيادة عظيمة في الإنتاج، كما أخرجت التصنيع من نطاق المنزل والورشة الصغيرة، وحلت الآلات ذوات المحركات محل العمل اليدوي. وبهذا انتقلت المجتمع الغربي من مجتمع ريفي زراعي إلى مجتمع حضري صناعي من الموسوعة العربية العالمية (٦/٨-٦) باختصار وتصرف يسير.

[٧] انظر: الأسرة في الغرب: أسباب تغيير مفاهيمها ووظيفتها، دراسة تحليلية، خديجة كرار الشيخ طيب بدر، دار الفكر ٢٠٠٩، ص١٣٨-١٣٩.

[٨] انظر: المرجع السابق، ص١٤٠.



ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

- تحجيم سلطان الكنيسة والابتعاد عن تعاليمها مما كان سبباً في الابتعاد عن كثير من الأمور الأخلاقية التي كانت مقدسة في الديانة النصرانية ومن أهمها الزواج، فالمحافظة عليه أساس لا غنى عنه لاستمرار الفضيلة[٩].
- انهيار الأسرة التقليدية بمفهومها المعروف المكون من أب وأم يجمعهما عقد الزواج، وظهور نماذج جديدة للأسرة الغربية تمثل انحرافاً عن الفطرة وخروجاً عن الطبيعة مثل أسرة المساكنة أو ما يسمى بالتعايش بالتراضي؛ بحيث يتمكّن الرجل والمرأة من العيش معاً تحت سقف واحد بلا عقد ديني أو اجتماعي، وأسرة المثليين، والأسرة القائمة على أحد الأبوين دون الآخر، وغيرهم.
- ظهور الفرديةُ المفرِطة، التي تقدِّس الفردَ، وتجعله المركز والأساس، بينما تكون القِيَم والمبادئ والأخلاق أمرًا هامشيًّا؛ لذا فالمصلحة الخاصَّة مقدَّمة على المصلحة العامَّة، والحرية الفردية فوق سائر الحريات[١٠].
- خضوع أنظمة الحياة الغربية بما فيها الأسرة إلى النظريات الحديثة ومن أبرزها النظرية الداروينية[١١] التي جرّدت الأسرة من أُطُرها الدينية، وعليه فإن تغيير مفهوم الأسرة في ذاته لم يكن مشكلة لعلماء الاجتماع الغربيين؛ فهو وفق الداروينية تطور حتمي يقضي إما بإلغاء الأسرة أو تحويل وظائفها لمؤسسات الدولة والهدف من ذلك تحرير أطرافها من إسار الزوجية التقليدي البالي حسب زعمهم[١٢].

وقد انعكست تلك العوامل سلباً على واقع الفرد في المجتمع الغربي وأثرت عليه من الناحية النفسية والاجتماعية والدينية.

---

(٩) انظر: الجانب المظلم في التاريخ المسيحي، للباحثة الغربية هيلين إيليربي، ترجمة سهيل زكار، دار قتيبة دمشق، ٢٠٠٥.

(١٠) الأسرة في المجتمعات الغربية: إلى أين المصير، بشار محمد بكور، مجلة نهج الإسلام، مج (٣٧)، ع (١٤٢)، ٢٠١٦م، ص ٦٥-٦٩.

١١ نسبة إلى "دارون" (١٨٠٩-١٨٨٢م) عالم طبيعي، وضع نظرية في تطور الأحياء أدت به إلى نظرية فلسفية في الطبيعة، أخرج نظرية التطور في كتابه "أصل الأنواع " طبقها على الإنسان في كتابه: "تسلسل الإنسان والانتخاب الطبيعي"، زعم فيها أن الإنسان يعود في أصله إلى سلالة القرود، وأن الأنواع الحالية على اختلافها يمكن أن تفسر بأصل واحد أو ببضعة أصول، وأن الحياة صراع في سبيل البقاء. وقد استفاضت الردود والكتابات الغربية والإسلامية التي تُبيّن فساد نظريته، انظر: تاريخ الفكر الأوربي الحديث، رونالد سترومبرج، ترجمة: أحمد الشيباني، دار القارئ العربي، ط٣، ١٤١٥، القاهرة، ص١٢-١٣.

(١٢) انظر: الأسرة في الغرب، أسباب تغيير مفاهيمها ووظيفتها، دراسة تحليلية، خديجة كرار الشيخ طيب بدر، دار الفكر ٢٠٠٩، ص١٤٢.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

ومما لا شك فيه أن المستشرق ومن ناحية تكوينه العلمي يبقى في النهاية هو ابن البيئة، والحواضن العقدية والدينية والفكرية والحضارية التي أسهمت في تشكيل عقليته، أي أنه يبقى أميناً لتوجهاته الذاتية وخلفياته الدينية وغيرها.

المطلب الثاني: دور الأسرة الغربية في تكوين خلفية المستشرق.

وقد برز دور الأسرة في تكوين خلفية المستشرق من خلال عدة مؤثرات ساهمت في التأثير على شخصيته وتكوينه الثقافي داخل نطاق الأسرة من أبرزها:

١- التأثير العقدي.

تؤدي الأسرة دوراً فاعلاً في غرس المعتقدات في نفوس أفرادها وقد أخبر النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أَبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ»، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠][١٣].

ويدل الحديث ويؤكد على أن الإنسان يولد بفطرة نقية سليمة " فمن تغيَّر كان بسبب أبويه؛ إما بتعليمهما إياه، أو بترغيبهما فيه، وكونه تبعًا لهما في الدين يقتضي أن يكون حكمه حكمهما"[١٤].

والمتتبع لسيرة المستشرقين ونشأتهم؛ يجد أن لأسرهم دوراً كبيراً في التأثير على معتقداتهم وفي تكوين خلفيتهم الدينية فقد تأثر المستشرق المجري (جولد تسيهر) بديانة أسرته اليهودية، حيث نشأ في أسرة يهودية ذات مكانة عالية وقدر كبير[١٥]، وقد حرص والده حرصاً شديداً على تعليمه العبرانية، وبخاصة النص الأصلي للكتاب (المقدس)[١٦]، فتعلم حب الاطلاع والقراءة، حيث نشر وهو في الثانية عشرة من عمره بحثاً موضوعه "تطور الصلاة في الدين الموسوي وإلغاء الزيادات المتأخرة التي أضيفت له على مرور الزمن"[١٧].

---

[١٣] متفق عليه، صحيح البخاري (٢/ ٩٤) (١٣٥٨)، صحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٧) (٢٦٥٨).

[١٤] فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (٢٥٠/٣).

[١٥] انظر موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، ص ١٩٧ - ٢٠٣، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣م، دار العلم للملايين، بيروت. والمستشرقون نحيب العقيقي، (٩٠٦/٣)، الطبعة الثالثة، ١٩٦٤م، دار المعارف، مصر.

[١٦] انظر: التعليقات النقدية على كتاب دراسات محمدية، ص ٣٣، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩م، مركز العالم الإسلامي لدراسة الاستشراق، لندن.

[١٧] ١٧ انظر: موسوعة المستشرقين، ١٩٨.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

وقد وصفه المستشرق (جيمس هيورت دن) بأنه " أكبر العلماء اليهود على الإطلاق. وذكر أن ثمانية وعشرين ألف مجلد من مكتبته موجودة الآن في إسرائيل"[١٨].

وأما المستشرق (ماكدونالد) فقد ولد في أحضان أسرة نصرانية ظهر أثرها عليه من خلال اهتماماته الدينية والعلمية، فقد حافظ على العمل الكنسي منذ شبابه وحتى وفاته، رغم استغنائه عن ذلك بوظائفه الأكاديمية والعلمية، وكان لتكوينه الثقافي والديني دور في اتجاهه لدراسة الإسلام من خلال قيمه الروحية، حيث كان قسيساً متخصصاً في الدراسات اللاهوتية[١٩]، وكان مهتماً في البحث عن علاقة الإسلام بالمسيحية، فزعم أن قول المسلمين بأن القرآن منزل غير مخلوق "مأخوذ من اعتقاد النصارى بالكلمة السماوية غير المخلوقة التي في صدر الأب"[٢٠].

وأما المستشرق (ألفرد جيوم) فقد ولد في أسرة يهودية، وعُرف بتعصبه ضد الإسلام، وهو نموذج للمستشرق المتعصب الذي تغلب على روحه وآرائه الحقد والبغض للإسلام وأهله[٢١]، بل إن تعصبه ضد الإسلام وميله الشديد لليهودية ظهر في عدد من مؤلفاته فقد ألف كتاباً بعنوان: "أثر اليهودية في الإسلام" وآخر بعنوان: "اليهود والعرب"[٢٢].

وكان لأسرة المستشرق القسيس (مونتجمري وات) أثر في تكوينه العقدي، فقد ولد في بيئة نصرانية، متأثراً بعقيدة والده القسيس (أندرو وات)، وقد احتل مكانة مميزة في المجتمع الانجليزي بوصفه قسيساً يجمع بين الالتزام بالمسيحية وصلته الوثيقة بالمسلمين[٢٣].

---

(١٨) مفتريات على الإسلام، أحمد محمد جمال، الطبعة الرابعة، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤٠٥هـ، ص ١٠٧ الهامش.

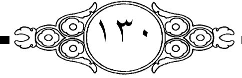
(١٩) الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الاستشراقية، ساسي الحاج، ص٢٣٧.

(٢٠) D.B. Macdonald. The Development of Muslim Theology, Jurisprudence and Constitutional Theory. London, ١٩٠٠, ١٤٦P.

(٢١) الاستشراق والمستشرقون، مصطفى السباعي، ص٣٠ وأخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي، صابر طعيمة، ص٨٠.

(٢٢) مستشرقون سياسيون جامعيون مجمعون، نذير حمدان، ص٢٣١.

(٢٣) انظر: المستشرقون، العقيقي، (٥٥٤/٢).



ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

وظهرت خلفيته الدينية وتعصبه المقيت ضد الإسلام ونبيه ﷺ في العديد من المواقف فكان معروفاً لدى طلابه بتعصبه ونزعاته التنصيرية[٢٤].

وقد ولد المستشرق (برنارد لويس) من عائلة يهودية، وكان يخفي يهوديته ولم تُعرف إلا من خلال: عمق ارتباطه بالحركة الصهيونية والذي ظهر بوضوح بعد حرب عام ١٩٦٧م. ودفاعه العنيف ضد قرار الأمم المتحدة عام ١٩٧٦م باعتبار الصهيونية حركة عنصرية، وفي كتاباته ومؤلفاته بشكل عام، فأول ما يلفت النظر في كتابات لويس خلفيته اليهودية وعمق تأثيرها فيه، حيث تغلب عليه النظرة اليهودية. فقد وجه تخصصه في التاريخ الإسلامي لخدمة الدراسات اليهودية والبحث في المسائل التي تخص اليهود في العالم الإسلامي[٢٥].

كذلك فإن المستشرق (مرجليوث) ولد في أسرة يهودية، انعكس تأثره بها في كونه من أخطر المستشرقين، وقد ظهرت خلفيته اليهودية من خلال اهتمامه باليهود وإفراده كتاباً لعلاقاتهم بالعرب، وكان دائما ما يحرص المستشرقون اليهود على إطرائه والتنويه باسمه[٢٦].

وكان لوالدة المستشرق (هاملتون جب) دور في تكوين خلفيته الدينية، حيث كانت تعمل معلمة في كنيسة مدرسة البنات الاسكتلنديات في الإسكندرية، وكان لها الأثر في تعليمه، فعندما بلغ السن الخامسة من عمره أرسلته للدراسة في إسكتلندا في المدرسة الملكية في أندبره[٢٧].

وقد ظهرت خلفيته الدينية وحقده على الإسلام في الكثير من المواقف؛ فكان من المباركين لخطوات وأعمال الفكر الغربي في تغريب العالم الإسلامي ومسخ هويته الثقافية والدينية، فهو أول من أطلق كلمة "التغريب"[٢٨] على أثر الثقافة والفكر

---

[٢٤] انظر رؤية إسلامية للاستشراق، للأستاذ أحمد غراب، ص ١١٥-١٢٦، نقلاً عن محمد في مكة، تأليف: مونتجمري وات، تعريب: الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ (مقدمة الكتاب).

[٢٥] الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، د. مازن مطبقاني، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، مصر، ١٩٩٥م، ص٦٩-٧٠.

[٢٦] الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، د. مازن مطبقاني، ص٩٧.

[٢٧] إنجازات مستشرق، ألبرت حوراني، ترجمة سلامة فوزي، مجلة الفكر العربي، العدد/٣١، ١٩٨٣م، السنة الخامسة، بيروت، ص٣٧٣.

[٢٨] انظر: وجهة الإسلام، جب وآخرون، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة، المطبعة الإسلامية، القاهرة، ص٤٢.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

الغربي في حياة المسلمين من خلال كتابه "وجهة الإسلام" والذي ألفه بالاشتراك مع عدد من المستشرقين[٢٩].

وقد تأثر المستشرق (لويس ماسينيون) بوالده الذي اشتهر بالفن في الأوساط الفنية في باريس، وكان لهذا أثره في تنشئة ابنه: فقد نُشِّئَ نشأة عقلية فنية، ساهمت في تكوين خلفيته الدينية، فقد كان متذوقاً للفن بشكل عام، وكان حبه للفن من العلامات البارزة في إنتاجه، ولعل هذا الجانب الفني الذي تلقاه من أبيه هو الذي وجهه إلى العناية بالآثار الإسلامية، وقد أثر تذوقه للفن على حبه للشعر، فقد قرأ أشعاراً لفريد الدين العطار تدور حول مصرع الحلاج[٣٠]، مما حمله على الإعجاب به وتكريس دراسته وأبحاثه حوله[٣١].

وأما المستشرق الأب (هنري لامنس) فقد كان راهباً يسوعياً، شديد التعصب ضد الإسلام، فكان من اليسير أن يظهر لأي باحث مدى الحقد الديني في آرائه، فمن ذلك اعتباره أن الإسلام هو الحاجز الذي حال دون انتشار عقيدته المسيحية في ربوع الأرض، وقد عنى هذا بالنسبة إليه أن مصدر الإسلام هو الشيطان ذاته، ولذلك راح يحاربه بأبشع الوسائل؛ أي الكذب الصريح، والتلفيق، والتشنيع، والتزوير، والتأويل الفاسد، والحض على التبشير والتدمير[٣٢]، وقد عبّر عن عظيم حقده على الإسلام بقوله: "ولولا الإسلام لاستطاع اليهود والنصارى أن يقتسموا الجزيرة العربية"[٣٣].

---

[٢٩] الإسلام والدعوات الهدامة، أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م، ص٢٤٣.

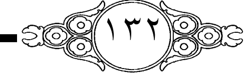
[٣٠] هو الْحُسَيْن بن مَنْصُور الحلاج يكنى أبا مغيث، وقيل: أبا عَبْد اللَّهِ، وكان جده مجوسيا اسمه محمى من أهل بيضاء فارس، نشأ بواسط العراق، من أشهر القائلين بالحلول بين غلاة الصوفية، عرف عنه الشعوذة والحيل، سافر إلى الهند وتعلم السحر، له صلات بالقرامطة وثورات الزنج، أدعى الألوهية أفتى فقهاء عصره بقتله فقطعت أطرافه ثم قتل وصلب سنة (٣٠٩هـ) انظر تاريخ بغداد: ١١٢/٨ - لسان الميزان لابن حجر: ٣١٤/٢ - وانظر سير أعلام النبلاء: ٥١٣/٩.

[٣١] انظر: المستشرقون، نجيب العقيقي، (٢٦٤/١-٢٦٨).

[٣٢] مناهج المستشرقين ومواقفهم من النبي ﷺ عرض ونقد في ضوء العقيدة الإسلامية، رياض العمري، مركز تأصيل للدراسات والبحوث، ط١، ١٤٣٦هـ، ص٢٨٠-٢٨١.

[٣٣] نبوة محمد في الفكر الاستشراقي، ص٢٦٠ نقلًا عن:

٥٤p -Henri Lammens -I'Arabie occidentl avant I'Hegire



ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

٢- المستوى الاجتماعي والاقتصادي للأسرة.

أدى ظهور الطبقات الاجتماعية في الغرب؛ كالطبقة الأرستقراطية والطبقة الوسطى (البرجوازية) والطبقة العاملة (البروليتاريا)، إلى تأثر كثير من الأسر الغربية سلباً أو إيجاباً بهذا التصنيف.

هذه التحولات أثّرت بشكل عام في تكوين المجتمع الغربي، وقد كان لها أثرها على الأسرة بصفة خاصة(٣٤).

ولو تتبعنا سيرة المستشرقين؛ نجد أنهم قد تباينت طبقاتهم الاجتماعية مما كان له الأثر على واقع حياتهم ومؤلفاتهم، فبينما المستشرق البارون(٣٥) (كارا دي فو) ولد لأسرةٍ أرستقراطية(٣٦)، كان أثر نشأته واضح في كتاباته عن النبي ﷺ حيث اتسمت بالحدة والاستعلاء، بينما كتابات المستشرق (آربري) اختلفت لأنه ولد في بيت صغير جدًّا في حي فراتون من أحياء بورتسموث جنوبي إنجلترا، وهو الابن الرابع من بين خمسة أولاد٣٧.

٣- المستوى التعليمي والثقافي للأسرة.

من المؤكد أن للثقافة والمستوى التعليمي للأسرة دور في تكوين شخصيات الأبناء، فالأسرة هي التي تضع الأساس الذي يقوم عليه بناء الذات والشخصية لأفرادها، والمستوى التعليمي والثقافي لها يمثل ركيزة أساسية في توجيه الطفل وتنشئته.

وقد كان لمستوى الأسرة الثقافي والتعليمي دور في حياة المستشرق (نيكولسون)، الذي نشأ في بيئة علمية، حيث كان والده الأستاذ الدكتور (هنري نيكولسون) أستاذاً للتاريخ الطبيعي بجامعة أبردين، وقد ساهم مساهمة فعالة في

---

(٣٤) انظر: الأسرة في الغرب، ص١٤١.

(٣٥) البارون: في فرنسا كان يلقب به الشرفاء جميعا، ثم صار يلقب به كل من أكابر أتباع الملك، وأصبح يعني شريف، وهو دون (الكونت) مقاما، فيما كان يُطلق في رومية على الرجل -أي رجل-، أما في القرون الوسطى فكان يعني صاحب الأرض أو من كان تحت يده إقطاعات. دائرة المعارف، بطرس البستاني، مادة (بارون)، نشر مطبعة المعارف، بيروت ١٨٨٠ م، ج٥، ص٧١.

(٣٦) انظر: المستشرقون، نجيب العقيقي، (٢٣٨/١)، وموسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، ص٤٦٢.

٣٧ انظر: المستشرقون (١٣٦/٢-١٣٨)، وانظر كتابه: Sufism Of Account of the Mystics of Islam. London, George Allen& Unwin ltd.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

الجيولوجيا وعلم الحيوان، وكان كاتباً غزير الإنتاج، ومن أحسن كتاب زمانه في علم الحيوان(٣٨).

تأثر (رينولد نيكولسون) أيضاً بجده (جون نيكولسون) في ميله إلى الدراسات الشرقية، فقد كان جدة من كبار علماء العربية والتاريخ، وله كتاب عن أسباب توطد حكم السلالة الفاطمية في أفريقيا أصدره في عام ١٨٤٠م(٣٩).

وكان لاتـصال (نيكولسون) بجده أثر في ميله إلى الدراسات الشرقية، فتعلم لغات الهند وأحرز فيها المرتبة الأولى، ودرس العربية والفارسية حتى أتقنها، وكان قد كتب ورقة للإذاعة. ذكر فيها تأثره بأسرته، وأنه وجد متعة في بحث الأفكار والخبرات الجديدة(٤٠).

أما المستشرق (جولدتسيهر) فقد ذكر في يومياته تحت عنوان: (معجزات طفل وعبقري ناشئ) كيف أنه قضى طفولته في العلم والدرس، وأنه على الرغم من أن أباه كان يعاني من ضيق ذات اليد إلا أنه علمه العبرانية بشدة، وبخاصة النص الأصلي للكتاب (المقدس)، وكان يعقد مع أصدقائه حلقات دينية يلقي فيها خطباً وعظية، ثم شرع بعد ذلك في دراسة التلمود(٤١).

وفي شبابه بدأ يقرأ لفلاسفة اليهود من القرون الوسطى بلغاتهم العبرية الصعبة، ووضع كتيباً عن أصل الصلوات اليهودية وتطورها(٤٢).

---

(٣٨) انظر: المستشرقون، نجيب العقيقي، (٥٢٥/٢).

(٣٩) الأعلام، خير الدين الزركلي، قاموس، تراجم لأشهر الرجال والنساء للعرب والمستعربين، المطبعة العربية القاهره ١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م، ص١٨٦٨.

(٤٠) -Iuma, of Abu Nasr Al-the Kitab Al A. J. Arbery, Pages from ٨-٧P. .١٩٤٧Sarraj. London

(٤١) التلمود هو كتاب تعاليم الديانة والآداب اليهودية، ويتكون من المشنا والجمارا، فالمشنا هي الشرائع المكررة والجمارا هي الشرح والتعليق من علماء اليهود، ويعتبر اليهود التلمود أفضل من التوراة لأن موسى قد تلقاه عن الله على الجبل، وقد تناقله الحاخامات بعد ذلك فهم معصومون من الخطأ. انظر: الكنز في قواعد التلمود ترجمه من اللغة الفرنسية د. يوسف نصر الله، ص ٢٩، طبعة الأولى، ١٨٩٩م، مطبعة المعارف، مصر. وأيضا: مقال لـ (رافائيل باتاي) بعنوان (معجزة طفل عبقري ناشئ) ضمن كتاب اليوميات الشرقية لـ (جولد تسيهر) وقد ترجمه باتاي من الألمانية إلى الإنجليزية وقد نقله إلى العربية الدكتور الصديق نصر من كتاب التعليقات النقدية على كتاب دراسات محمدية، ص ٣٣، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩م، مركز العالم الإسلامي لدراسة الاستشراق الندن.

(٤٢) انظر: التعليقات النقدية على كتاب دراسات محمدية، ص ٣٤.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

كما أن والديه اهتما به اهتماماً خاصاً منذ صغره، فأبوه جلب له معلم خصوصي كان يقيم في داره ليعلمه العبرية، وقد لبث جولدتسيهر يذكر هذا المعلم طوال حياته، ويردد "إن كنت قد فزت بشيء في الأخلاق الحميدة، فإنما يرجع ذلك لاثنين: إلى مطالعتي الدائمة في كتاب الهداية إلى فرائض القلوب وهو كتاب فلسفي أخلاقي، وإلى معلمي موسى الذي كان مثالاً للورع والتواضع، مع أنه كان يضربني كلما غلطت أيسر غلطة في تلاوة التوراة"(٤٣).

كما أن والده كان يوقظه عند الساعة الرابعة والخامسة فجراً ليكمل دروسه، وهو طفل لم يبلغ الثامنة من عمره، كما كان مهتماً بشراء المجلدات الضخمة أثناء زيارته للمكتبات ودور الكتب(٤٤).

لذا فإن الأسرة التي ترعرع ونشأ تحت ظلها (جولد تسيهر) اعتنت به، وأشعلت ذكاءه، وشحذت، همته وجعلت منه زعيماً للدراسات الإسلامية الأولى في أوروبا قاطبة.

وأما والدا المستشرق (آربري) فقد كانا مولعان ولعاً شديداً بالقراءة والاطلاع على الكتب، ومن هنا دفعه حب أبويه للقراءة إلى السير على دربهما والإبحار في عالم الكتب وتذوق الأدب(٤٥).

وبعد أن أنهى دراسته الثانوية في بورتسموث حصل على منحة دراسية لدراسة الكلاسيكيات اليونانية واللاتينية في كلية بمبروك بجامعة كمبردج عام ١٩٢٤م، وحصل على المرتبة الأولى مرتين في المواد الكلاسيكية المؤهلة للحصول على بكالوريوس الآداب، مما دفع أستاذه بالجامعة إلى حثه على دراسة اللغتين العربية والفارسية ليحصل على المرتبة الأولى مرتين في مواد الدراسات الشرقية عام ١٩٢٩م(٤٦).

نستنتج مما سبق؛ أن للأسرة الغربية أثر في تكوين الخلفية العقدية لأبنائها، حيث تمثل الأسرة الأساس الاجتماعي في تشكيل وبناء شخصيات أفراد المجتمع، وأنها من المنابع التي يستقي منها الفرد؛ الثقافة والأخلاق والقيم، إذ فيها ينشأ فيها وفيها تنطبع سلوكياته، وتبقى آثارها منقوشة فيه، يحملها معه، ويورثها ذريته من بعده.

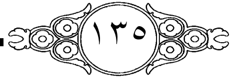
---

(٤٣) انظر: دراسات محمدية، ص٣٩٧.

(٤٤) انظر: التعليقات النقدية، ص٣٥.

(٤٥) انظر: موسوعة المستشرقين، ص٥-٨ - وانظر: المستشرقون ٢/١٣٦-١٣٨ – وانظر كتابه: e Sufism An Account of the Mystics of Islam. London, George Allen& Unwin ltd

(٤٦) موسوعة المستشرقين، ص٥-٨.



ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

وقد ظهر أثر ذلك واضحاً في تكوين خلفيات المستشرقين العقدية، حيث إن المستشرق ومن ناحية تكوينه العلمي يبقى في النهاية هو ابن البيئة، والحواضن العقدية والدينية والفكرية والحضارية التي أسهمت في تشكيل عقليته، أي أنه يبقى أميناً لتوجهاته الذاتية وخلفياته الدينية وغيرها.

المبحث الثاني: دور البيئة والثقافة المجتمعية الغربية وأثرها في تكوين خلفيات المستشرقين العقدية:

يخضع الإنسان منذ ولادته لبيئته المحيطة به وما يلفها من ثقافات معينة، ومعتقدات يصعب جداً تغيير ما انطبع في ذهنه من تأثيرها ومؤثراتها التي اكتسبها منذ نعومة أظفاره، وكذلك الاستشراق وليد بيئة وحضارة صنعها الغربيون، حيث نشأ الاستشراق مرتبطاً بما يدور حوله من حركات علمية ارتباطاً وثيقاً[٤٧]. ولقد استجاب الاستشراق للثقافة التي أنتجته أكثر مما استجاب لموضوعه المزعوم الذي هو أيضاً من نتاج الغرب[٤٨]، فجاءت كتاباتهم تجاه الإسلام تعبيراً عن نفسياتهم؛ إذ أن المستشرقين ظلوا أمداً بعيداً يكتبون لجمهورهم الغربي فحسب[٤٩]، وليس أدل على ذلك من نصارى الأندلس، الذين عايشوا الإسلام طيلة ثمانية قرون، ورغم ذلك تجاهلوا الإسلام وعقيدة المسلمين[٥٠].

ويمكن القول بأن الثقافة الغربية المعاصرة في نظرتها للديانات بشكل عام وللإسلام بشكل خاص؛ كانت نتاج تحولات اجتماعية وفكرية أثرت في الوعي الأوربي خلال قرون متطاولة، منذ عهدها اليوناني فالروماني فالهيمنة الكنسية وما صاحبها من أحداث دينية وسياسية في العصور الوسطى، وأن هذه التحولات قد طالت أيضاً العقيدة والقيم والأخلاق ونمط الحياة، وتسللت مؤثرات هذه التحولات خلسة إلى مكونات المجتمع، فكان الناتج خلخلة للبناء، وتغييراً في المفاهيم والمبادئ والقيم والمصطلحات، ولأن المستشرقين جزء من مجتمعاتهم؛ فقد ساهمت هذه المؤثرات في تكوين خلفياتهم العقدية، ويمكن تصنيف هذه المؤثرات إلى: مؤثرات داخلية ومؤثرات خارجية.

---

[٤٧] المستشرقون ومناهجهم اللغوية، إسماعيل أحمد عمايرة، ص١٢.

[٤٨] الاستشراق، إدوارد سعيد –ترجمة كمال أبو ديب، ص٥٥

[٤٩] منهجية الاستشراق في دراسة التاريخ الإسلامي، أحمد بن عبود، مقالة من كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، ج/١، ص٣٤٧، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس١٩٨٥م.

[٥٠] الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، الدكتور إسماعيل علي محمد ص ١٩-٢٠، دار الكلمة – المنصورة – مصر ط/ ٣/ ١٤٢١هـ.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

المطلب الأول: المؤثرات الداخلية التي ساهمت في تكوين خلفيات المستشرقين العقدية.

تأثر المجتمع الغربي بالعديد من العوامل الداخلية التي أثرت على نمط الحياة الدينية والاجتماعية لديه، ومن أبرز هذه العوامل:

١- هيمنة الكنيسة الكاثوليكية على المجتمع الغربي وقوة نفوذها

فمنذ أن علا نجمها وسطع في العصور الوسطى، وأخذ نفوذها في الازدياد على ثرى القارة الأوروبية وباعتبارها المؤسسة الدينية فقد منحت لنفسها الحق في التدخل في معظم شؤون الناس، إن لم يكن كلها، واستصدرت صكوك الغفران، وفرضت أن تكون لغة الكتاب (المقدس) هي اللغة اللاتينية التي كان معظم الناس لا يجيدونها، كما أنها احتكرت الحق في فهم هذا الكتاب وتفسيره، وابتدعت محاكم التفتيش لملاحقة كل من يخالف تعليماتها وتشريعاتها وقوانينها واتهمته بالهرطقة والكفر، وفرضت لنفسها هيبة وسلطاناً في النفوس جعل لها جانباً كبيراً من الرهبة في قلوب الناس، لذلك فإن كل رأي كانت الكنيسة تتبناه فإنه يصبح وبصورة تلقائية، رأياً يجب على أتباعها ورعاياها أن يتبنوه، وأن أي موقف تتخذه الكنيسة تجاه حدث معين فإنه يصبح وبصورة تلقائية موقفاً لجميع أتباعها ورعاياها[٥١].

ومما يؤكد ذلك ما قاله (هربرت جورج ويلز) H. G. Wells: "لم يقتصر تعصب الكنيسة على الأمور الدينية وحدها، فإن الشيوخ الحصفاء المولعين بالأبهة السريعي الهياج الحقودين، الذين من الجلي أنهم كانوا الأغلبية المتسلطة في مجالس الكنيسة، كانوا يضيقون ذرعاً بأية معرفة عدا معرفتهم، ولا يثقون بأي فكر لم يصححوه ويراقبوه، فنصبوا أنفسهم للحد من العلم الذي كانت غيرتهم منه بادية للعيان وكان أي نشاط عقلي عدا نشاطهم يعد في نظرهم نشاطاً وقحاً"[٥٢].

وكانت نظرة الكنيسة إلى الإسلام وأتباعه نظرة عدائية، فقد رسخت في قلوب رعاياها تلك النظرة المتحاملة المليئة بالحقد والتشويه للإسلام وأصوله ونبيه ﷺ كما وصف ذلك برنارد شو بقوله:" لقد طبع رجال الكنيسة في القرون الوسطى دين الإسلام بطابع أسود حالك، إما جهلاً وإما تعصباً، إنهم كانوا في الحقيقة مسوقين بعامل بُغْض محمد ودينه، فعندهم أن محمداً كان عدواً للمسيح"[٥٣].

---

[٥١] انظر: موقف الكنيسة الغربية من الإسلام ونبوة محمد ﷺ، راجح إبراهيم البساتين، ص٤٣، المكتبة الوطنية، الأردن،٢٠١٠م.

[٥٢] معالم تاريخ الإنسانية، Wells .H. G، (٩٠٥/٣).

[٥٣] الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة، محمد شريف الشيباني، الطبعة الأولى، دار الحضارة العربية، بيروت، ١٤٠٨هـ، ص ٣٨٦

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

ومن الجدير بالذكر أن موقف الكنيسة ونظرتها العدائية تشكلت عبر مجموعة من العوامل المتباينة التي تظافرت وتجمعت لتصنع هذا الموقف، ومن أبرز هذه العوامل وأهمها: الجهل بالإسلام والخوف منه، وقصص الخيال والموروث الشعبي، ومساهمات الرهبان في التحريض على الإسلام والمسلمين، وسيأتي تفصيل تلك العوامل في ثنايا البحث إن شاء الله.

وفي العصر الحديث ومع تمكن المستشرقين من العودة إلى المصادر الإسلامية يستقون منها معلوماتهم عن الإسلام لم يتوقف نشر الأفكار الخاطئة عن الإسلام والمسلمين، بل استمر ذلك في الكتب المنشورة والصحف اليومية وفي التعليم العام في المدارس والجامعات[٥٤].

وقد استمرت هذه النظرة المعادية للإسلام وأهله تهيمن على المجتمع الغربي وتتواصل عبر القرون والأجيال، وبما أن المستشرق ابن بيئته، وفرد من ذلك المجتمع، فقد تأثر بتلك البيئة وتشبع بتلك الأفكار، فتأصل لديهم تيار العداء للإسلام، ذلك التيار الذي لا يزال فاعلاً وممتداً أفقياً ورأسياً[٥٥].

فالمستشرق لا ينسى أبداً ثقافته وبيئته التي فيها نشأ وتربى. فهي تعمل عملها في وعي المستشرق وهو يتعامل مع الغير، بمعنى آخر: الاستشراق مرتبط بحضارته يقول (فالرز Walzer) "حركة الاستشراق كانت تسير جنباً إلى جنب مع التحولات والتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي سادت العصور التي عاش فيها أولئك المستشرقون فلا يمكن أن نفصل بين ما شهدته من ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية وبين ما أنتجه أولئك المستشرقون من دراسات"[٥٦].

٢- النظرة الاستعلائية الغربية والتمركز حول الذات ونظرتهم الدونية للشعوب والمجتمعات الأخرى.

يتسم المجتمع الغربي - على اختلاف ديانته- في معاملاته وعلاقاته الدائمة بالشعور بالاستعلاء العنصري، فهو موروث تاريخي، وصفة متأصلة في هذا المجتمع، وركن رئيس من مكونات الثقافة الغربية، الأمر الذي أدى إلى تنمية الإحساس لدى هذا المجتمع بنرجسيته، واحتقار غيرهم من الشعوب، حيث أن أبرز

---

(٥٤) انظر: خرافات الغرب عن الإسلام، ادوين كالفري، ص ٩٧، وانظر أيضاً: تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، ترجمة نبيه، فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٤م، ص٢٥، ٣١، ٦١.

(٥٥) الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، الدكتور إسماعيل علي محمد ص ٢١، دار الكلمة – المنصورة – مصر ط/ ٣/ ١٤٢١هـ.

(٥٦) الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، د. محمود ماضي، ص١٤، دار الدعوة، الاسكندرية، مصر ط/١/ ١٤١٦هـ.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

أعلام الفكر الغربي لم يخرجوا من دائرة هذه النزعة الاستعلائية، والنظرة الفوقية، وحب السيطرة على الآخر، وقد أشار وليد نويهض إلى تلك النظرة بقوله: "احتفظ المستشرقون من القرن الثامن عشر بمفهوم الحضارات الكلاسيكية المتفوقة على الحضارات الأخرى"(٥٧).

وقد كانت لهذه النظرة الفوقية التي مثّلت انحرافاً خطيراً في الخلق والتفكير جذوراً عميقة في الفكر الغربي حيث تعود جذور هذه النظرية إلى:

- الحضارة اليونانية. يقول المفكر (جورج سارتون)(٥٨): "وأسوأ ما يؤخذ على أرسطو ما يتصل بنظام الرق، وقد اعتبره أمراً طبيعياً. استمع إليه حيث يقول: وقد وضح إذن أن بعض الناس أحرار بطبيعتهم، وأن بعضهم أرقاء بطبيعتهم، وأن الرق حق على هؤلاء، وهم أهل له، بل يجب التسليم بأن بعض الناس أرقاء أينما حلّوا، وأن بعضهم أحرار في كل مكان، ومثل هذا يقال في شرف المحتد: فالهللينيون لا يعتبرون أنفسهم أشرافا في موطنهم وحسب، بل في كل مكان، في حين أنهم يعتبرون البرابرة شرفاء في مواطنهم فقط، وبذلك يُفَرّقون بين نوعين من الشرف والحرية أحدهما مطلق والآخر نسبي. اهـ. وقد كان أرسطو مؤمنا كل الإيمان بهذه الأفكار بدليل أنه أجاز إعلان نوع من الحرب يصح أن يطلق عليها أسلافنا اسم "حرب المستعمرات". يقول: إذا لم يكن في الطبيعة عمل ناقص أو عبث فمن الضروري أن تستنتج أن الحيوان خلق من أجل الإنسان، ولذا كانت الحرب بمعنى من معانيها فناً من الفنون الطبيعية غايته التملك، لأن من أساليب التملك الصيد والقنص، وهو فن يجب أن نمارسه ضد الحيوانات الوحشية وضد الناس الذين قضت الطبيعة بأن يخضعوا لغيرهم ذلك لأن حربا من هذا القبيل لا

---

(٥٧) وليد نويهض، نهاية الاستشراق، جريدة الحياة، العدد ١١٥٤٥، الثلاثاء ٢٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٤م الموافق ٢٢ ربيع الآخر ١٤١٥هـ ص١٨.

(٥٨) المستشرق البلجيكي جورج ألفرد ليون سارتون KGeorge Sarton ولد في مدينة غنت، ببلجيكا (١٨٨٤ م)١٣٠٢ هـ ثم نال شهادة الدكتوراهَ الفلسفية في الرياضياتِ من جامعة (Ghent) سنة١٩١١. هاجرَ إلى إنكلترا بَعْدَ أَنْ اندلعت الحرب العالمية الأولى، ومنها ذهب إلى الولايات المتّحدةِ الأمريكية في عام ١٩١٥، حيث استقر فيها لبقية حياته؛ وتجنس بجنسيتها. وأتم بقية حياته باحثا مشاركا لمؤسسة كارنيجي (Carnegie) بواشنطن من الفترة ١٩١٩ وحتى ١٩٤٨. وقد زار جورج سارتون عددًا من البلدان العربية منها مصر وبلاد الشام وغيرهما، وتمرس بالعديد من اللغات، ومُنِحَ ست شهادات دكتوراه فخرية، كما انتخب عضوًا في عشرة مجامع علمية، وظل رئيسا للاتحاد الدولي لتاريخ العلوم فترة طويلة توفي سنة١٩٥٦م.انظر، الأعلام، الزركلي، (١٤٥/١).

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

شك حرب عادلة"٥٩ ويعود (إرنيست رينان)[٦٠] بهذه النظرة الاستعلائية إلى الماضي القديم فيعلن " بأن الجنس السامي دون الجنس الآري وأقل منه حظاً في قابليته الفكرية."[٦١]، فيقول: "كل شرقي وأفريقي وجد نفسه مغلولا بطوق حديدي ضرب على رأس كل مؤمن، وسد أمامه طريق العلم كلية، ولم يفتح أمامه القدرة على إنتاج أية فكرة جديدة. بيد أن الروح الآرية (الهند أوربية) هي التي أبدعت كل جديد في السياسة بمعناها الحقيقي، والفن والآداب التي لا يملك الساميون منها شيئا على الإطلاق (باستثناء شيء يسير من الشعر) فضلا عن العلم والفلسفة. وبهذا الخصوص نحن إغريقيون تماماً، وحتى ما يسمى بالعلم العربي لم يكن أكثر من امتداد للعلم الإغريقي، الذي لم ينقل بواسطة الغرب، لكن نقلته كانوا من الفرس والإغريق المرتدين إلى الإسلام"[٦٢].وقد أصبحت نظريته العرقية بعد ذلك جزءاً من التفكير العلمي الأوروبي في معالجة أي مسألة تتصل بالدين (٦٣).

- النصوص التوراتية المحرفة والتي تدّعي تميّز الإسرائيليين عمن عداهم من بني البشر، فقد جاء في التوراة: "شعب مقدس اختاره الرب ليكون شعبه المختار دون بقية شعوب الأرض"[سفر العدد: ١٤:٢]. وفي نص آخر أنه خاطبهم؛ بقوله: "واتخذ لي شعباً وأكون لكم إلهاً"[سفر الخروج:٦-٧].

---

(٥٩) تاريخ العلم، جورج سارتون، ترجمة توفيق الطويل، (٣٣٠/٣)، دار المعارف، مصر، ١٩٦١م.

(٦٠) "إرنيست رينان" (١٨٢٣-١٨٩٢م) E. Renan, كاتب شهير، ومستشرق فرنسي، درس الأديان، وشكك فيها، مستخدماً منهج النقد التاريخي، تضلع في اللغات الشرقية، رحل إلى لبنان، وعُني بدراسة الإسلام، يزعم أن الدين خرافة، ويميل ميلاً ظاهراً إلى الآراء الإلحادية وأصحابها، وانتخب عضواً في المجمع اللغوي الفرنسي، من أبرز مؤلفاته: مستقبل العلم، ابن رشد والرشدية، حياة يسوع، محاورات فلسفية انظر، المستشرقون، العقيقي، مرجع سابق، ١٩١/١م.

(٦١) المستشرقون الناطقون بالإنجليزية دراسة نقدية، عبد اللطيف الطيباوي، ترجمة وتقديم: قاسم السامرائي، إدارة الثقافة والنشر، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١١هـ-١٩٩١م.، ص١٣.

(٦٢) A. Hourani, Islam in European Thought, P ٢٨-٢٩ ، نقلاً عن الاستشراق دراسات تحليلية تقويمية، محمد الشرقاوي، ص ١٨٠-١٨١ ، كلية دار العلوم، مطبعة القاهرة، تاريخ الطبع (بدون).

(٦٣) انظر: المستشرقون الناطقون بالإنجليزية دراسة نقدية، عبد اللطيف الطيباوي، ص١٥.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

وهكذا نظر الإسرائيليون إلى أنفسهم على أنهم الشعب الذي اصطفاه الله وفضله على العالمين، وأن من عداهم من الشعوب أقل منهم مكانة [٦٤].

ويشير الدكتور زيد العبلان إلى هذه النظرة الاستعلائية، التي أنتجت عداوة متأصلة في المجتمع الغربي، وكونت حرباً مستمرة على دين الإسلام، يتناقلها المجتمع الغربي جيلاً بعد جيل، حيث نقل من كتب عقائدهم ما يؤكد على هذه النظرة الاستعلائية، حتى تتَّضح الصورة، ويتبيَّن السَّبب الذي يمنع كثيراً منهم عن قبول الحق ويدفعهم إلى مغالطة الحقائق، فقد أورد ما جاء في كتاب العهد القديم من التأكيد على عداوة العرب، حيث جاء في سِفر التكوين ما يذكر أنه عداوة وخلافٌ بين زوجتَي نبيِّ الله إبراهيم (عليه السَّلامُ): سارة أُمّ إسحاق جدّ بني إسرائيل أهل الكتاب، وهاجر أُمّ إسماعيل جَدّ العرب الذين منهم خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، كما جاء في العهد الجديد ما يؤكد هذه العداوة فقد ورَد في رسالة بولس إلى أهل غلاطيه في الإصحاح الرابع من الفقراتِ ٢١-٣١: "قولوا لي أنتم الذين يريدون أنْ يكونوا في حُكم الشريعة أما تسمعون الشريعة، يقول الكتاب: "كان لإبراهيم ابنان؛ أحدُهما من الجارية والآخرُ من الحُرَّة، أما الذي من الجارية فوُلِد حسب الجسد، وأما الذي من الحرّة فوُلِد بفضل وعد الله، وفي ذلك رمز لأنَّ هاتيْن المرأتيْن تمثلان العهديْن، فإحداهما هاجر من جبل سيناء تلد للعبودية وجبل سيناء في بلاد العرب، وتمثى أورشليم الحاضرة التي هي وبنوها في العبودية، أما أورشليم السَّماوية فحُرّة وهي أمُّنا.

يقول الكتاب: "اطردوا الجارية وابنَها؛ لأنَّ ابن الجارية لن يرِثَ مع ابن الحُرّة، فما نحن إذَنْ يا إخوتي أبناء الجارية، بل أبناء الحُرَّة"[٦٥].

وهذه الدعوى لم تقتصر على اليهود، بل زعم بعض النصارى كذلك بأنهم شعب الله المختار، وأن الله اصطفاهم، يقول "وليم باركلي" في تفسيره لفقرات من كتابهم (المقدس): "كل الامتيازات التي كانت ممنوحة من قبل للإسرائيليين قد آلت الآن للكنيسة المسيحية، فالكنيسة بجميع أعضائها من كل أمة من العالم الشعب المختار"[٦٦].

---

[٦٤] موقف المستشرقين من العبادات في الإسلام من خلال دائرة المعارف (الإسلامية)، محمد السرحاني، رسالة دكتوراه، ص٤٥.

[٦٥] الدراسات الاستشراقية في ضوء العقيدة الإسلامية، زيد العبلان، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٠٦هـ، ص (٣-٥).

[٦٦] تفسير العهد الجديد، رسائل يعقوب وبطرس، ترجمة: إدوارد ووديع عبد المسيح، دار الثقافة المسيحية، القاهرة، ص٢٠٦، نقلاً عن: محمد السرحاني، موقف المستشرقين من

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

وهذه النظرة لم تغيرها الأيام بل هي متوارثة بين أجيال الغربيين، لا يمكن لأوروبا التخلي عنها، بل يجزم الدكتور عمايرة بقاء هذه النظرة إلى يومنا هذا[٦٧]، حيث أن هناك عوامل تعتبر بمثابة سواقي تغذية لهذه النزعة الاستعلائية لتديمها في ذهنية الفرد الغربي، كلما انطفأت نيرانها أو خف وهيجها في صدور الغربيين، ومن أبرز هذه العوامل: الاستشراق، فبعد أن توسع الاستشراق مع الحروب الصليبية وزاد خطره، وكان هدفه انتصار الحروب الصليبية في صورتها المشوهة، والتي اتصفت بالعصبية المقيتة، والنزعة العدوانية التي تهدف إلى السيطرة والهيمنة على الشرق، وابتزاز ثرواته بعد السيطرة عليه، وسلب كل مظاهر القوة منه، لذا عمد بعض المستشرقون إلى تشويه كل ما يدل على الإسلام، وفي مقدمة ذلك كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والأصول العقدية الإسلامية[٦٨]، ومنذ زمن بعيد وإلى الآن، ولا زال الكُتَّاب وأهل الفكر الغربي يعتدون على المسلمات الثابتة ويشككون فيها؛ معتمدين على بعض كتابات المستشرقين ممن حادوا عن طريق الصواب، وتأثروا بأولئك الذين تأصلت لديهم نزعة الاستعلاء والسيطرة[٦٩]،وقد انتقلت هذه الصورة إلى الأجيال اللاحقة في أوروبا على شكل تقليد منهجي وإطار فكري، وتحولت إلى فتاوى شرعية اعتمدتها الأجيال اللاحقة وقبلتها كحقيقة بالنسبة لهم دون بحث أو اعتبار. وتأثرت كتابات المستشرقين بهذه النزعة الاستعلائية الأوروبية، فمنها انطلق المستشرقون في تفسير الدين الإسلامي ورده إلى ديانات سابقة عليه؛ وهكذا تمكنت النظرة الدونية للشعوب الأخرى في نفوس الأوروبيين مقابل نظرة الاستعلاء والتفوق العنصري، وهو ما ظهر جلياً لدى المستشرقين في كتابتهم عن الإسلام.

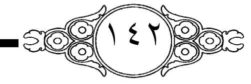
وإذا كانت مشاعر الغربيين تجاه الإسلام في العصور الوسطى هي الخوف والعداء والكراهية، ففي الفترة التي تطورت فيها الصناعة الغربية وتأخرت الحضارة

العبادات في الإسلام من خلال دائرة المعارف (الإسلامية)، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، ص٤٥.

[٦٧] المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربية بحث في الجذور التاريخية للظاهرة الاستشراقية، إسماعيل أحمد عمايرة، دار حنين، ط٢، الأردن، ص٨٣.

[٦٨] الاتجاهات الفكرية المعاصرة، علي جريشة، دار الوفاء المنصورة، ١٩٨٦م، ص٢١-٢٢.

[٦٩] حاضر العالم الإسلامي، محمد عوض الهزايمة، دار الحامد للنشر، عمان، ط٢، ٢٠١٢م، ص٥٢.



ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

الإسلامية، تحول الخوف من الإسلام إلى نظرة ملؤها التحدي والاستعلاء، بل والوصاية على العديد من الدول الإسلامية في فترة الاستعمار الأوروبي(٧٠).

وقد تركت هذه النظرة الاستعلائية بصماتها في فكر المستشرقين ومدارس الاستشراق عبر العصور، يقول المستشرق (رودي بارت)Rudi Parret في معرض كلامه عن الالتزام بالموضوعية: "فنحن معشر المستشرقين عندما نقوم اليوم بدراسات في العلوم العربية وفي العلوم الإسلامية لا نقوم بها فقط لكي نبرهن على ضعة العالم العربي والإسلامي بل على العكس، نحن نبرهن على تقديرنا الخاص للعالم الذي يمثله الإسلام ومظاهره المختلفة، والذي عبر عنه الأدب العربي كتابة، ونحن بطبيعة الحال لا نأخذ كل شيء ترويه المصادر على عواهنه دون أن يعمل فيه النظر، بل نقيم وزنًا فحسب لما يثبت أمام النقد التاريخي أو يبدو كأنه يثبت أمامه، ونحن في هذا نطبق على الإسلام وتاريخه، وعلى المؤلفات العربية التي نستعمل المعيار النقدي نفسه الذي نطبقه على تاريخ الفكر عندنا وعلى المصادر المدونة لعالمنا نحن"(٧١).

وإذا كان بارت يحاول في عبارته السابقة أن يثبت براءته هو وأقرانه من أي اتهام بعدم الموضوعية، فإن نهاية عبارته أكبر دليل إدانة على عدم الموضوعية. فتطبيق المنهج التاريخي، أو أية معايير أخرى على فكر ما، ليس معناه صلاحية هذا المنهج أو تلك المعايير على سائر أفكار الأمم. إن تمحور الأوربيين حول الذات، جعلهم يرون في أنفسهم المعيار الأوحد الذي يقاس عليه الآخرون، وهذا هو نتاج التعصب الأوربي وتضخم الذات الأوربية(٧٢).

وقد تجلت هذه الخلفية الاستعلائية في محاولة المستشرقين فهم القرآن الكريم من منطلق المناهج والنظريات الغربية التي تأثروا بها، وقد قدموه كوسيلة لتغريب منهج فهم القرآن اعتماداً على الأدوات المعرفية الحديثة المستمدة من التقاليد الثقافية والفلسفية الغربية، ثم تطبيق هذه الأدوات على تفسير النصوص بشكل عام. لقد سعى هؤلاء المستشرقون إلى أن يصبحوا "منظرين" لما ينبغي أن يكون عليه المنهج في فهم القرآن، فحرصوا نتيجة لذلك على تكوين عدد من المنتسبين إلى الإسلام في هذا

---

(٧٠) انظر: موقف المستشرقين من العبادات في الإسلام من خلال دائرة المعارف (الإسلامية)، محمد السرحاني، ص٤٦.

(٧١) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، رودي بارت، ترجمة مصطفى ماهر، دار الكاتب العربي، القاهرة،١٩٦٧م، ص١٠.

(٧٢) انظر: الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية، محمد جلاء إدريس، دار العربي للنشر والتوزيع، ١٩٩٥م، ص٤٠.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

المجال، والهدف من هذا الجهد هو السعي إلى إثبات "المركزية الأوروبية" بالنسبة للمسلمين حتى في مجال فهم القرآن[٧٣].

وقد كتب المستشرق الفرنسي (كلود جيليو) في "دائرة المعارف الشاملة" –نشره ١٩٩٠م- مؤرخاً ومفاخراً بما حققه المستشرقون في مجال "تطوير" الدراسات المرتبطة بالتفسير فقال: "إن تطور الدراسات القرآنية في الغرب منذ منتصف القرن العشرين تحقق بفعل تأثير التقدم الملحوظ في مجال الدراسات الإنجيلية نظريات النقد الأدبي..، ويمكننا أن نميز بين توجهين رئيسين في هذه الدراسات:

الأول: يشتغل على تاريخ النص القرآني من حيث تكوينه وجمعه وتدوينه.

أما التوجه الثاني: فيهتم بإعادة قراءة القرآن انطلاقاً من الوسائل التي توفرها مختلف العلوم الإنسانية، كما يعنى أيضاً بالدراسات النقدية لأمهات التفاسير القديمة التي تعتبر شاهداً على الطريقة التي ساهم بها النص القرآني في تكوين الخيال الإسلامي في مختلف مراحل التاريخ، أي صورة الإسلام كما ينظر إليه، وصورته كما جاء، وصورته في مخيلة المسلمين".

ويكشف هذا النص جانباً من "عقيدة" الاستعلاء الغربي، فصاحبه يمن على الدراسات القرآنية المعاصرة "بفضل" المستشرقين عليها من حيث إنهم طوروها اعتماداً على خبرة الغربيين في مجال دراسة اللاهوت، ثم لم يكفه ذلك، بل زادهم فضلاً على فضل؛ لأن دراستهم النقدية للتفاسير من شأنها أن تكشف أن الإسلام الذي يمارسه أهله والذي يتخيلونه (يتصورونه) في وجدانهم ليس هو الإسلام الذي دعا إليه القرآن.

إن هذا الاستعلاء لا يمكن فهمه إلا باستحضار تصور غربي يتعلق بوسائل تحصيل العلم والمعرفة التي تتأسس عند هؤلاء على "تأليه العقل المجرد" وما يؤدي إليه، وهذا ما أُشربه المستشرقون في قلوبهم حين تبنوا دعوى إخضاع القرآن لهذه المناهج التي يحسون بالزهو والعلو حين يتحدثون عن استفادتهم منها في مجال الدراسات المتعلقة بالإسلام عامة وبالقرآن على وجه الخصوص[٧٤].

وفي محاضرة ألقاها مكسيم رودنسون أمام مستشرقين أعضاء في "الجمعية الهولندية لدراسات الشرق الأوسط والإسلام" في هولندا، عنوانها "الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا" قال هذا المستشرق في استعلاء: "وفي رأيي أن من بين الأشياء الإيجابية التي تثبت صلاحيتها نهائياً وكونياً في الممارسة الأوروبية للعلم هي

---

[٧٣] انظر: دعوى فهم القرآن في ضوء مناهج العلوم الإنسانية، عبد الرزاق هرماس، بحوث المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات الإسلامية، المجلد الأول، ص١٨٣-١٨٤.

[٧٤] المرجع السابق، ص٢٢٦-٢٢٧

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

الدراسة النقدية للأصول، وإذا كانت هذه الدراسة قد مورست من قبل كبار مفكري الحضارات الأخرى إلا أن ممارستها المنهجية إلى أقصى الحدود لم تتحقق إلا في أوروبا، وغالباً ما تدان هذه المنهجية النقدية للأصول من قبل غير الأوروبيين باعتبارها تنال من مشاعرهم لكن يجب علينا أن نقول ونكرر بأن هذه المنهجية انطلقت في أوروبا وطُبقت على الأصول الأوروبية، وأن هذا التطبيق على التراث الروماني القديم وعلى نصوص التوراة والأناجيل هو الذي صقل أسلحتها[٧٥].

ويمكن بيان موقف الإسلام من النظرية الاستعلائية الغربية وتفنيدها من منطلق أن من مبادئ الإسلام العظيمة إلغاء الطبقية والنزعة الفوقية، والتأكيد على مبدأ المساواة بشتى صورها بين الأجناس والأعراق، فلا يؤذى أحد بسبب لونه أو جنسه، ولا تفاضل بينهم إلا بالتقوى، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وجاء في الحديث عند الإمام أحمد في المسند والطبراني في المعجم أن رسول الله ﷺ قال: "إن ربكم واحد، وأباكم واحد، ولا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى"[٧٦]، ومن صور المساواة إيقاع الجزاء على كل من ينتهك حداً من حدود الله، فلا يعفى أحد من العقوبة لشرفه، أو قرابته من الحاكم، وخير دليل على ذلك حديث عائشة رضي الله عنها أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول ﷺ؟ فقالوا ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ؟ فكلمه أسامه، فقال رسول الله ﷺ: أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فاختطب ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"[٧٧].

ومع هذه المبادئ العظيمة التي دعا إليها الإسلام، وطبقها الرسول ﷺ عملياً في حياته، وأكد عليها ﷺ، أُلغيت الفوارق الطبقية والعرقية والجنسية، فنجد أن الإسلام يؤاخي بين صهيب الرومي، وسلمان الفارسي، وبلال الحبشي، وأبو بكر القرشي، فلا

---

[٧٥] المرجع السابق، ص٢٢٨.

[٧٦] أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤١١/٥ح ٢٣٥٣٦، والطبراني في المعجم الأوسط ج٥/ص٨٦، من طريق أبي سعيد الخدري، والمعجم الكبير ١٢/١٨. وصححه الألباني ح (٤٦١) شرح العقيدة الطحاوية، ص٣٦١.

[٧٧] أخرجه البخاري من طريق عائشة رضي الله عنها ١٢٨٢/٣، كتاب الأنبياء، باب (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم)، ح٣٢٨٨، ٤٠٥٣، ٦٤٠٦، ومسلم ١٣١٥/٣، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف، ح١٦٨٧، ٤٤٠٢.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

فرق بين أحد منهم إلا بالتقوى، فليس هناك تمييزاً بين العربي والفارسي أو غيرهم من الأعراق أو الأجناس، فالكل سواسية كأسنان المشط[٧٨].

وقد اتضح من خلال الحديث عن النظرة الاستعلائية في المجتمع الغربي أن لها بالغ الأثر على الفكر الاستشراقي، وذلك من خلال:

- دراسة الإسلام وإظهاره بشكل مشوه، فقد أثار الكثير من المستشرقين الشبهات حول النصوص الدينية والأحداث، متبعين مناهج لا تمت للبحث العلمي النزيه بصلة[٧٩].
- عدم استطاعة بعض المستشرقين في دراستهم للإسلام التخلي عن هذه النظرة الاستعلائية الناتجة عن المعتقدات السائدة في مجتمعهم، وتظهر خطورة هذه الخلفية بأنها تكون بمثابة الموجه الخفي للمستشرقين في دراستهم للإسلام.
- توارثهم لهذه النظرة الاستعلائية المقيتة، فهم حريصون على استدامة معتقداتهم وموروثاتهم وترسيخ هذه النظرة في مجتمعهم، وانتقالها للأجيال اللاحقة، "ومن هنا تبرز أهمية ما يحملون من آراء وميول بالنسبة لما يخلفونه من آثار وما ينطبع منهم على غيرهم"[٨٠].

٣- تطور الفكر الأوروبي وتفلّته من قبضة الكنيسة:

لم يستسلم المجتمع الغربي لطغيان الكنيسة وتسلطها استسلاماً تاماً، فقد كان يشهد بين الفينة والأخرى ثورةً على القوانين الكنسية، ومن أقوى التطورات التي شهدها الفكر الغربي، ذلك التطور الذي نشأ بالقفز على الأسوار الكنسية التي أحاطت بها العالم الأوروبي في أواخر القرون الوسطى، وبداية عصر النهضة، فقد شهد المجتمع الغربي في هذه المرحلة تطورات كبيرة، زادت من الوعي الأوروبي، ودفعته إلى مواجهة الكنيسة، وتعد هذه المرحلة نقطة تحول كبير، ونقلة نوعية في التفكير الأوروبي، وكان ذلك التحول شاملاً لمجالات متنوعة؛ كالعلوم الفلكية والطبية والجغرافية، والسياسية وغيرها. وهي تطورات اجتماعية وذهنية عظيمة جدًّا، كما وصفها المؤرخ الإنجليزي (ويلز)[٨١].

ويصف الكاتب (ريتشارد تارناس) ما حصل في تلك المرحلة، قائلاً: "ومثل هذا التطور الاستثنائي المدهش للوعي والثقافة الإنسانيين لم يكن قد حصل منذ المعجزة

---

(٧٨) مسفر السلوم، موقف المستشرقين من الافتراق والفرق، ص١١٦.

(٧٩) الاستشراق والتاريخ الإسلامي، فاروق فوزي، ص٧٦.

(٨٠) المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، الطيباوي، ص٣٠.

(٨١) انظر: ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث، سلطان العميري، ص٥٩

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

الإغريقية القديمة، لحظة ولادة الحضارة الغربية بالذات، حقًا وُلد الإنسان الغربي ولادة جديدة"[٨٢].

وكان من مظاهر تطور الوعي الأوروبي في المجال المعرفي في عصر النهضة ما يلي:

- انتشار القراءة والكتابة بعد أن كانت خاصة بطبقة الأشراف ورجال الدين مما ساهم في سرعة انتشار الأفكار والآراء، واتساع نطاق تداولها بين الناس فكان من السهل تشكّل التيارات الفكرية.
- كثرة انتشار نُسَخ الكتاب (المقدس) بين الناس، وتكاثر ترجمات نسخه بعد أن كانت الكنيسة تحرّم نشره، والقراءة فيه، وتمنع من الاطلاع عليه.

وقد أدى انتشار الكتاب (المقدس) بين أيدي الناس- بعد ظهور الطباعة- إلى إزالة الوصاية الكنسية على فهم الدين، أوضح ذلك المؤرخ الإنجليزي (برتراند رسل) بقوله: "وبظهور الطباعة، اتسع نطاق تداول الأفكار الجديدة إلى حد هائل جداً، وهذا هو الذي ساعد -في النهاية- على هدم السلطات القديمة؛ وذلك لأن توافر الكتاب (المقدس) مطبوعًا بين أيدي الناس ومترجمًا إلى لغات محلية، قد أفسد على الكنيسة ادعاءها الوصاية على أمور العقيدة"[٨٣].

- انتشار ظهور الجامعات في البقاع الأوروبية والتحاق كثير من الفلاسفة والعلماء والمستشرقين بها مما كان لهم الأثر على من جاء بعدهم[٨٤].

وقد استطاعت هذه التطورات وغيرها؛ أن تُحدث تغيراً جذرياً في نمط الحياة الأوروبية، وساعدت بشكل كبير جداً على زيادة الوعي المعرفي، في الأوساط الغربية، فأخذوا يربطون بين الكنيسة وبين الحالة السيئة القبيحة التي كانوا يعيشونها، واستقر في أذهان كثير منهم أن الدين سبب رئيس لحالة الفقر والإعواز، والتخلف والقهر والظلم؛ ولهذا نفروا منه، وثاروا على قوانينه وتعاليمه[٨٥]، وكان هذا من أسباب ظهور النظريات والمذاهب الفلسفية.

---

[٨٢] الآم العقل الغربي، ريتشارد تارناس، ص٢٦٨.
[٨٣] انظر: ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث، سلطان العميري، ص٦٦.
[٨٤] المرجع السابق، ص٦١-٦٢.
[٨٥] انظر قصة الحضارة، ول ديورانت، (٧٠/٢٨).



ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

٤- ظهور النظريات والمذاهب الفلسفية وتأثر المجتمع الغربي بها.

طغت النظريات الفلسفية والاجتماعية في القرن الثامن عشر على عقلية الأوروبي، وبدأ فئة من العلماء في محاولة تطبيقها أو تفسير الواقع بناء على هذه النظريات وانساق ذلك في الدراسات الاستشراقية[٨٦].

وقد شهدت الفلسفة الغربية في القرن الثامن عشر أكبر درجة من التطور والتحرر والاستقلال عن الفكر الكنسي، حتى أطلق على هذا القرن عصر التنوير، الذي كان يُقصد به تنحية الوحي وإبعاده عن التوجيه، حيث تميّز هذا العصر بالإيمان بأهمية العقل وقدرته على استيعاب العالم وفهمه وإخضاعه لحاجات الإنسان، وعلى غرار نجاح علماء الطبيعة في هذا المجال، بدأ المفكرون في دراسة الجوانب الثقافية والاجتماعية لعملهم، فقد درسوا الأنظمة الدينية والسياسية والأخلاقية في العالم، وأخضعوها للنقد العنيف من وجهة نظر العقل وحده[٨٧].

ومن أبرز النظريات التي أثرت في الفكر الاستشراقي؛ نظرية (دوركايم Durkheim)[٨٨] الذي يرى أن الدين ظاهرة اجتماعية، حيث تغلغلت هذه النظرية في أطروحات المستشرقين. فقد حاول الاستشراق فرض مفهوم أن الدين ظاهرة اجتماعية لم تنزل من السماء وإنما خرجت من الأرض، كما خرجت الجماعة نفسها ويسير الاستشراق والمنهج الغربي كله في نظرته إلى الأديان جميعاً على هذه الدعوة المضللة التي ترى أن الدين ظاهرة اجتماعية مرحلية تلت مرحلة الوثنية وأعقبتها مرحلة العلوم، والتي لم يعد بعدها الفرد أو المجتمع في حاجة إلى وصاية الدين، وأن الأمم الراقية الآن لا تحتاج الى الدين أصلا[٨٩].

---

(٨٦) انظر: حفريات الاستشراق في نقد العقل الاستشراقي، سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١٩٨٩م.ص٦٧.

(٨٧) انظر: منهج البحث الاجتماعي بين الموضوعية والمعيارية، محمد المزيان، ص٣٩، الدار العالمية للكتاب الإسلامي بالرياض والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، ط ٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

(٨٨) إميل دوركايم (١٨٥٨-١٩١٧م)، فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي، يعتبر أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث، وقد وضع لهذا العلم منهجية مستقلة تقوم على النظرية والتجريب في آن معا. وأبرز مؤلفاته: في تقسيم العمل الاجتماعي، وقواعد المنهج السوسيولوجي. موسوعة علم الاجتماع، جوردن، مارشال، (٢/٧٣٠)، معجم أعلام المورد، منير البعلبكي، ص٩٠.

(٨٩) انظر: أضواء على الاستشراق والمستشرقين محمد أحمد دياب، ص٥٠-٥١، دار المنار، ط ١ ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، القاهرة.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

٥- الاختلافات المذهبية المسيحية.

تعددت الفرق النصرانية، وتشعبت إلى طوائف مختلفة في أصل العقيدة وفي طبيعة المسيح؛ فمنهم من يقول بطبيعة واحدة، ومنهم من يقول بالطبيعتين[٩٠] للمسيح[٩١].

وقد أخبر الله تعالى باختلاف الفرق النصرانية في المسيح-عليه السلام-، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ *وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ * وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ * فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴾. [الزخرف: ٦١-٦٥].

ويشير ابن كثير[٩٢] إلى اختلاف فرق النصارى في عيسى-عليه السلام-؛ فيقول: "أي اختلفت الفرق وصاروا شيعاً فيه، منهم من يُقر بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق. ومنهم من يدعي أنه ولد الله، ومنهم من يقول إنه الله؛ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً"[٩٣].

---

[٩٠] افترقت الكنائس حول طبيعة المسيح إلى عدة فِرَق: فمذهب "النسطوريين "-نسبة إلى "نسطور" الذي كان بطريرك القسطنطينية سنة ٤٣١م يذهب إلى أن عيسى -عليه السلام- بشر، ولكنه اتحد بعد الولادة بالأقنوم الثاني، وبهذا فهم يقولون بالطبيعتين في المسيح، وهو المذهب الذي تقول به الكنيسة الغربية.
وأما مذهب الكنائس الشرقية "الأرثوذكس" فيقول بالطبيعة الواحدة للمسيح، وأن العذراء تعد بحق والدة (الإله)، وقد يسمى هذا المذهب بالمذهب "اليعقوبي"، ومذهب "الكاثوليك" وهو مذهب الطبيعتين والمشيئتين، وقد اعتنقته كنيسة روما، فالمسيح أقنوم إلهي بحت، ولكن له ذاتان وكيانان، وهما الإله والإنسان. انظر: المسيحية، أحمد شلبي، مرجع سابق، ص١٩٢-١٩٤.

[٩١] William Montgomery Watt. O.p. cit, p ٢.

[٩٢] هو: إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير، البصري -نسبة إلى مدينة بصرى - ثم الدمشقي، الشافعي، عماد الدين، أبو الفداء، محدث مؤرخ مفسر حافظ، أفتى ودرس وصنف، ومن مصنفاته: البداية والنهاية، مختصر علوم الحديث لابن الصلاح، تفسير القرآن العظيم، وغيرها، توفي -رحمه الله- سنة ٧٧٤هـ. انظر: شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب، ابن العماد الحنبلي، مكتبة القدس، عام ١٣٥١هـ، (٢٣١/٦)، البدر الطالع بمحاسن مَن بعد القرن التاسع، الشوكاني محمد بن علي، دار الكتاب العربي، القاهرة، (١٥٣/١) رقم ٩٥، إسماعيل باشا، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى، بيروت، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٨٣/٢.

[٩٣] تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، (١٣٣/٤).

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

ويزداد الخلاف بين الفِرَق النصرانية مع مرور الزمن، ولم يقتصر الخلاف بينها على الخلاف بين "الكاثوليك"(٩٤)، و"الأرثوذكس"(٩٥)، و"البروتستانت"(٩٦) فحسب؛ وإنما ظهرت الانشقاقات والخلافات داخل الطائفة الواحدة، ولعل افتقادهم المصدر التشريعي الثابت لذي يجمع بينهم، ويحكم شؤونهم الدينية، له أثره في كثرة اختلافاتهم.

وقد أخبر الله تعالى عن شدة العداوة والبغضاء والاختلاف التي بين فرق النصارى، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [المائدة:١٤].

وقد فسّر ابن كثير شدة اختلاف فرق النصارى؛ فقال: "أي فألقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضاً، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة، ولذلك طوائف

(٩٤) "الكاثوليك": هي إحدى الطوائف النصرانية الرئيسة الثلاث، وهي تتبع السلطة العليا للباب في روما، وتستخدم لفظ "الكاثوليك" للدلالة على هويتها وشعائرها، ويُطلق عليها اسم "الكاثوليكية الرومانية" وتسمى كنيستها بالكنيسة "الكاثوليكية"، أو الغربية أو "اللاتينية". ولفظ الكاثوليك في أصله اليوناني يعني: الكلية، أو العالمية، وتتفق مع الطوائف الأخرى في عقيدة التثليث، ويختلفون في أصل طبيعة المسيح عليه السلام. انظر: المسيحية، أحمد شلبي مكتبة النهضة، القاهرة، الطبعة العاشرة، ١٩٩٨م، ص٣٨٢، Boettner, Loraine: Roman Catholicism, p.٢٢.

(٩٥) "الأرثوذكس": وهي الطائفة الثانية من الطوائف النصرانية المعاصرة، وتُسمى كنيستهم كنيسة الروم الأرثوذكسية، أو الكنيسة الشرقية، أو اليونانية، لأن أكثر أتباعها من الروم الشرقيين، أو من البلاد الشرقية على العموم كروسيا، والبلقان، واليونان، كان مقرّها الأصلي القسطنطينية، وقد انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية سنة ١٠٥٤م، وتُطلق كلمة "أرثوذكسي" الآن على كل نصراني غير "بروتستانتي " ولا يُسلم برئاسة بابا روما التي تسلم بها طائفة الكاثوليك. انظر: المسيحية، أحمد شلبي، مرجع سابق، ٢٣٩.

(٩٦) "البروتستانت": هم الطائفة الذين أعلنوا انفصالهم عن الكنيسة الكاثوليكية عام ١٥٢٩م، وأسسها مجموعة من الإصلاحيين، أشهرهم : (مارتن لوثر) احتجوا على بعض الشعائر الكاثوليكية مثل: صكوك الغفران، والعشاء الرباني، والسلطة البابوية، ولذا عرفوا بالمحتجين، وتسمى كنيستهم بالكنيسة (الإنجيلية)، إذ لا يعترفون إلا بالأناجيل دون غيرها من مصادر التشريع النصراني، ويرون أن لهم الحق في فهم الأناجيل بدون توسط رجال الكنيسة، وتنتشر هذه الطائفة في ألمانيا، وإنجلترا، والدانمارك، وهولندا، وسويسرا، والنرويج، وأمريكا الشمالية. انظر: المسيحية، أحمد شلبي مرجع سابق، ٢٤٢.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، فكل فرقة تحرم الأخرى ولا تدعها تلج معبدها"[٩٧].

وللمجامع الكنسية دور مهم في الصراع الذي مرّت به شريعة النصارى، بل وفي أصل عقيدتهم. حيث كان للمجامع النصرانية دور كبير في انحراف المسيحية؛ ففي سنة ٣٢٥م أقرّ مجمع "نيقية"[٩٨] الأول عقيدة التثليث؛ والمجامع إنما هي مجالس يلجأ إليها النصارى لإحداث بدعة أو لتغيير نص في كتابهم (المقدس)[٩٩].

ولقد كان الاختلاف بين الفِرَق المسيحية جوهرياً بحيث أصبحت ثلاث ديانات مختلفة، وبات النصراني يعيش تشتتاً فكرياً أدى به أخيراً إلى التخلي كلياً عن الدين، ومهاجمة الأديان الأخرى، وخصوصاً الإسلام[١٠٠].

وكان من نتائج هذا الاختلاف:

- حيرة المجتمع الغربي وضياعه نتيجة الاختلافات العقدية، وانقسام الكنيسة، ويؤكد ذلك المستشرق (مونتجمري وات) بقوله: "إن معظم الناس اليوم عندما يطّلعون على المناقشات العقدية المفصلة حول التثليث وشخصية المسيح يشعرون أنهم في متاهة من المجردات التي يصعب فهم صلتها بالحياة المسيحية الواقعية"[١٠١].
- الشك في مصداقية الدين المسيحي نتيجة لغموض العقيدة الكنسية وظهور الاختلافات بين طوائف المسيحية في تفسير عقيدتها.
- السلوكيات المشينة لرجال الكنيسة.
- ظهور الحركات الإصلاحية الغربية مثل حركة (مارتن لوثر) وغيرها[١٠٢].

ويصف أحد المؤرخين الغربيين حاجة المجتمع الغربي لإصلاح الكنيسة، فيقول: "وهذا الجهد الجاهد، وهذا الشوق المبرّح تمثل على أحسن ما يكون، في هذه

---

[٩٧] تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ٣٣/٢.

[٩٨] نيقية: مدينة قديمة في آسيا الصغرى على بحيرة سكانيا، وهي الآن واقعة في شمال غربي تركيا. انظر: Encyclopaedia Britannica, vol. ١٦, p.٤٧٠.

[٩٩] المسيحية، أحمد شلبي، مرجع سابق، ص١٩٨.

[١٠٠] المرجع نفسه، ١٩٨.

[١٠١] William Montgomery Watt. o.p. cit, p٢

[١٠٢] انظر: موقف المستشرقين من العبادات في الإسلام، محمد السرحاني، ص٣٨-٣٩.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

المحاولات التي تمت للقيام بإصلاح ديني جذري، كان المطلب الأكبر والقصد الأعظم الذي جاشت به نفوس الجميع إذ ذاك"[١٠٣].

المطلب الثاني: المؤثرات الخارجية التي ساهمت في تكوين خلفيات المستشرقين العقدية.

١- الحروب الصليبية[١٠٤].

تُعدّ الحروب الصليبية حدثاً فاصلاً في الغرب الأوربي، حيث أثرت هذه الحروب في نظرة المجتمع الغربي للإسلام والمسلمين، فنُظِر إلى الإسلام باعتباره العدو اللدود للمسيحية والحضارة الغربية، وأصبح الإسلام من منظورهم يشكّل تهديداً لأوروبا، ويبث رعباً مخيفاً وهي نزعة متوارثة عن الحملات الصليبية.

يقول "ليوبولد فايس" النمساوي الذي اعتنق الإسلام، وتسمى باسم "محمد أسد" – متحدثاً- عن مدى تأثر المستشرقين ببيئتهم الثقافية والاجتماعية: "أما تحامل المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثة، وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التي خلفتها الحروب الصليبية بكل مالها من ذيول في عقل الأوربيين"[١٠٥]. هذا التحامل

(١٠٣) القرنان السادس عشر والسابع عشر، "رولان موسنييه"، ترجمة: يوسف أسعد داغر، فريد م. داغر، المجلد الرابع، سلسلة: تاريخ الحضارات العام، إشراف: موريس كروزية" منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط٢، ١٩٨٧م.، ص٧٤.

(١٠٤) "من المهم هنا أن الإشارة إلى أن الرجال الذين قاموا بالحملة الصليبية الأولى لم يستخدموا مصطلح (الحملة الصليبية) أو (الصليبين، إذ لم يحدث سوى في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي أن ظهرت الكلمة اللاتينية (Crusesignati) ومعناها (الموسوم بالصليب) لكي تعبر عن الصليبين، لأنهم كانوا يخيطون صلبان القماش على مساراتهم، ولم يحدد حتى أوائل القرن الثالث عشر الميلادي أن كانت هناك كلمة لاتينية تعني (الحركة الصليبية). وفي بداية الأمر كان من يشاركون في الحملة الصليبية يوصفون بأنهم (حجاج)، (حملة الصليب)، (حجاج بيت المقدس)، كما وصفت الحملات بعدة تعبيرات مثل(رحلة الحج) التي كانت شائعة تماما في الفترة الباكرة من تاريخ الحركة الصليبية (الرحلة إلى الأرض المقدسة)، (الحرب المقدسة)(الحملة العامة)(حملة الصليب)، (مشروع يسوع المسيح) ومن اللافت للنظر حقا أن عناوين مؤلفاتهم جميعا خلت من ذكر كلمة (الصليبين)، أو (الحملة الصليبية)... "فمصطلح الحروب الصليبية لم يستخدم إلا في القرن الثامن عشر الميلادي، وقد اشتهر هذا المسمى لكونه يحمل معنى الحرب النبيلة ويوحى بالشجاعة والتضحية، وهي صفات لم توجد في هذه الحروب بتاتاً، بل كانت تجسد معنى"، ماهية الحروب الصليبية، قاسم عبده قاسم، ص: ٩، ١٠، عالم المعرفة، ١٤٩ مايو ١٩٩٠م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

(١٠٥) الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد، نقله إلى العربية د. عمر فروخ، ص٤٩-٥١، مكتبة المنار، الكويت، ط٧ ١٩٧٤م.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

كان نتيجة تصورات وانطباعات زائفة عن دين الإسلام عقيدة وفكراً، والتي تنشأ من خضوع المستشرق لبيئته الثقافية وعدم استطاعته التخلص من تلك الانطباعات التي تركتها لديه بيئته الثقافية المعينة -مع أن التحرر من الأحكام المسبقة العقلية والانفعالية معاً هو الشرط الأول للبحث العلمي-(١٠٦).

٢- الروايات العسكرية الخيالية.

شكلت الروايات العسكرية الخيالية التي كان ينسجها قادة الجيوش الأوروبية في الشرق بعد عودتهم إلى مواطنهم الأصلية، المادة الأولية الخيالية لما يمكن تسميته ببداية تكون فكر الاستشراق في فترات لاحقة، ففي هذه الفترة الممتدة من مطلع القرن الحادي عشر إلى نهاية القرن الخامس عشر تم تأسيس الفكرة الأصلية عن المسلمين في الشرق ومنها تم تكوين منهج معرفي متكامل(١٠٧).

وقد أدت الحروب الصليبية إلى طلب كبير وملحّ للحصول على وصف شامل ودقيق مرضي لأيديولوجية الخصوم. وكان رجل الشارع يرغب في صورة تبين الصفة الكريهة للإسلام عن طريق تمثيله بشكله الفج، على أن تكون في الوقت نفسه مرسومة بشكل يرضي الذوق الأدبي الميال إلى كل ما هو غريب.. فقد اختلطت الروايات المحضة التي كان هدفها الوحيد إثارة اهتمام القارئ - على نسب متفاوتة - بالعرض المشوه للعقيدة التي ألهبت حقد العدو ووصلت الملاحم إلى أعلى ذرى الابتكارات الخيالية. فقد كان (في عرف تلك الملاحم) محمد ﷺ هو صنمهم الرئيسي، ربما لا نستغرب من هذا الأسلوب في التشويه؛ فوجود عداوات أو تهديدات تتعرض لها أي فئة؛ يساعد على بث التصورات المغلوطة بشكل سريع، وهو أحد الأساليب للحرب والدفاع(١٠٨)،

ونتيجة لذلك، كانت الروايات العسكرية الخيالية من بين الأمور التي زادت من شغف الغرب، وألهبت حماسه للنظر إلى الإسلام بروح عدائية حقود، مما أدى إلى فقدان اتزانها واختلال موازينها في نظرتها وحديثها عن الإسلام والمسلمين.

٣- الصورة النمطية عن الإسلام في المجتمع الغربي.

ويعبر عنه بالقالب النمطي، أو الصورة النمطية، "والنمطية تعني الحكم الصادر لوجود فكرة مسبقة في شيوع فكرة معنية عن فئة معينة، فيقوم المدعي بإلباسها صفة

---

(١٠٦) انظر: الإسلام والمستشرقون، أبو الحسن الندوي، ص٢٠، ط/ ندوة العلماء، الهند.
(١٠٧) ينظر: نهاية الاستشراق، وليد نويهض، مرجع سابق، العدد ١١٥٤٥، ص١٨.
(١٠٨) الإسلام في الرؤية الأوربية من النشأة إلى عصر النهضة، خالد الشنيبر، مجلة الدراسات الإسلامية، جامعة الملك سعود، مج ٢٦، ع٣، ص٢٦.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

العمومية، أو فكرة مسبقة تُلقي صفات معينة على كل أفراد طبقة أو مجموعة، واشتق منهما فعل فقيل التنميط والقولبة"[١٠٩].

"ويشير بعض الدارسين لتصورات القرون الوسطى عن الإسلام إلى ثلاث مكونات أسهمت في تشكيل هذه القوالب النمطية، وهي: المكونات الميثيولوجية (الأسطورية)، واللاهوتية، والعقلانية. ومن ذلك مثلاً: الأدب الأوروبي في القرون الوسطى، كان بيد رجال الدين النصارى الذين استندوا في فهم الإسلام لمصادر متنوعة ومتمايزة جداً؛ كالقصص، والحجاج والمؤلفات الجدلية الإسلامية النصرانية. لكن الأمر المثير هنا؛ هو انتزاع المعلومة المقدمة في معظم الحالات من سياقها الأصلي، ثم تقديمها إلى القارئ الأوروبي بطريقة محرفة. وبهذا الشكل تم تشويه كثير من الحقائق والوقائع بصورة متعمدة في سياق البحث عن حلول سريعة "المشكلة الإسلام"[(١١٠)].

يقول "ليوبولد فايس" النمساوي الذي اعتنق الإسلام، وتسمى باسم "محمد أسد" – متحدثاً- عن الأوروبيين وموقفهم من الإسلام: "لا تجد موقف الأوروبي موقف كرهٍ في غير مبالاة فحسب، كما هي الحال في موقفه من سائر الأديان والثقافات؛ بل هو كُرهٌ عميق الجذور، يقوم في الأكثر على حدود من التعصب الشديد، وهذا الكره ليس عقليا فحسب، ولكنه يصطبغ أيضاً بصبغة عاطفية قوية.

قد لا تتقبل أوروبا تعاليم الفلسفة البوذية والهندوكية، ولكنها تحتفظ دائماً في ما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلي متزن، ومبني على التفكير، إلا أنها حالما تتجه إلى الإسلام يختل التوازن، ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب، حتى أن أكثر المستشرقين الأوروبيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام.

ويظهر في جميع بحوثهم على الأكثر كما لو أن الإسلام لا يمكن أن يعالَج على أنه موضوع بحث في البحث العلمي؛ بل على أنه متهم يقف أمامه قضاته.

وليس ذلك قاصراً على بلد دون آخر، إنك تجده في إنجلترا وألمانيا، وفي روسيا وفرنسا وفي إيطاليا وهولندا، وبكلمة واحدة في كل صُقع يتجه المستشرقون فيه

---

[١٠٩] انظر: الصورة النمطية لواقع الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي الدكتور: إبراهيم خلف سليمان الخالدي جامعة اليرموك / الأردن كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ص١٤.

[(١١٠)] الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، أليكسي جورافسكي، دار الفكر، بيروت، ط٢، ٢٠٠٠م، ص٧٦ نقلاً عن الإسلام في الرؤية الأوربية من النشأة إلى عصر النهضة، خالد الشنيبر، ص٢٥-٢٦،

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

بأبصارهم نحو الإسلام، ويظهر أنهم ينتشون بشيء من السرور حينما تعرض لهم فرصة -حقيقية أو خيالية- ينالون بها من الإسلام عن طريق النقد"(١١١).

ويقول أيضاً: هذه الانطباعات والتصورات والأحكام المسبقة تؤدي بالباحث – المستشرق- إلى أخطاء جسيمة: فالظاهرة الموجودة بالفعل بما أنها لا توجد كصورة عقلية في ذهنه فإنه يحكم عليها بالنفي. والظاهرة التي لا وجود لها بالفعل، ولكنها توجد كصورة ذهنية عند المستشرق فإنه يحكم عليها بالوجود الفعلي(١١٢)، فهم يعينون لهم غاية ويقررون في أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق، و يحملون غيرهم أعباء معارفهم الخاصة، فيؤكدون مثلاً: أن القرآن من إنشاء محمد ﷺ، ثم يذهبون مذهباً بعيداً في تأسيس الأحكام التاريخية والعقدية والأدبية وغيرها على هذا التأكيد، وسرعان ما ترتفع هذه التأكيدات بمجرد التكرار إلى مرتبة الحقائق الثابتة(١١٣).

يقول الدكتور حسين الهراوي: "إني لأعلم أن المستشرقين ينقصهم في مباحثهم عن الإسلام الروحُ العلميةُ، وأن لهم في الاستقصاء طريقة لا تشرِّف العلم، وهي أنهم يفرضون فرضا ثم يلتمسون الدليل عليه، فإذا وجدوا في القرآن ما يهدم نظريتهم تجاهلوه، والتمسوا الآيات التي تناسب المعنى المراد، ولا مانع من بترها إذا اقتضى الحال، أو تحريف معناها حسب الرغبة"(١١٤).

إن حقيقة واقع الأوروبيين يدلّ على أنهم في مواقفهم ووجهات نظرهم تجاه القضايا، يفرقون دائما بين ما هو إسلامي وما هو غير إسلامي، مما أدى إلى ازدواجية المعايير لديهم وتناقضها، أحدهما: معيار أهل الإسلام، الذي يفتقر إلى العدل والإنصاف. وهذا أمر لا يخفى على أي متابع لتعامل الغرب مع قضايا الإسلام والمسلمين في المحافل الدولية.

والعقل الاستشراقي ابن بيئته(١١٥).

ويعترف بعض المستشرقين بهذا التحامل غير المنهجي، فيشير المستشرق مونتجمري وات إلى تطبيقات هذا المنهج بقوله: "أما أوسع الدراسات فهي دراسة كايتاني في كتابه (حوليات الإسلام) وليس من الصعب تصحيح مبالغاته في

---

(١١١) الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد، نقله إلى العربية د. عمر فروخ، ص٤٩-٥١، مكتبة المنار، الكويت، ط٧ ١٩٧٤م.

(١١٢) الإسلام والمستشرقون، أبو الحسن الندوي، ص٢٠، ط/ ندوة العلماء، الهند.

(١١٣) الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، د. محمود ماضي، ص٣٠، دار الدعوة، الاسكندرية، مصر ط/١/ ١٤١٦هـ.

(١١٤) انظر: الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، الدكتور إسماعيل علي محمد ص ١٤٢، دار الكلمة – المنصورة – مصر ط/ ٣/ ١٤٢١هـ.

(١١٥) انظر: المرجع السابق، ص١٣٨.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

الشك"[١١٦]. ولكن يبدو أن هذا الاعتراف من باب المداهنة، لأنه وقع في نفس المحظور الذي عابه على كايتاني[١١٧].

"وقد استخدمت النمطية في الدراسات الاستشراقية على نطاق واسع؛ وذلك بإعطاء صورة مقنعه للأوروبي، وبأسلوب يدل على أن كاتبها قد خبر ودرس وعرف وبذل كل جهد في الاستقصاء، وعلى منهج علمي مألوف لكل مثقف أوروبي، وأنه وصل إلى هذه النتيجة التي وضعها بين يديه بعد خبرة طويلة وعرق وجهد وإخلاص حتى لا يشك قارئ في صدق ما يقرأه، وأنه هو اللباب المصفى من كل كدر، والمبرأ من كل زيف، وأنه الحق المبين والصراط المستقيم. كان جوهر هذه الصورة، هو أن هؤلاء العرب المسلمين هم في الأصل قوم بداة جُهّال لا علم لهم كانوا جياع في صحراء مجدبة، جاءهم رجل من أنفسهم فادعى أنه نبي مرسل، ولفّق لهم ديناً من اليهودية والنصرانية، فصدقوه بجهلهم واتبعوه، ولم يلبث هؤلاء الجياع أن عاثوا بدينهم هذا في الأرض يفتحونها بسيوفهم، حتى كان ما كان، ودان لهم من غوغاء الأمم من دان، وقامت لهم في الأرض بعد قليل ثقافة وحضارة جلها مسلوب من ثقافات الأمم السالفة، كالفرس، والهند، واليونان وغيرهم حتى لغتهم كلها مسلوبة، وعالة على العبرية والسريانية والآرامية والفارسية والحبشية. ثم كان من تصاريف الأقدار أن يكون علماء هذه الأمة العربية من غير أبناء العرب (الموالي)، وأن هؤلاء هم الذين جعلوا للحضارة الإسلامية كلها معنى. بثوا هذه الصورة بكتبهم بمهارة وحذق وخبث، وبأسلوب يقنع القارئ الأوروبي"[١١٨].

وبعد ظهور الإعلام تم توظيف هذه الصورة النمطية على عدة أشكال، كأفلام سينمائية، أو صور كاريكاتيرية، أو رسوم متحركة، وغيرها. وهذه الصور النمطية مضللة وتفتقر إلى العدالة والانصاف، ويتم نشرها من خلال الحملات الإعلامية التي تهدف إلى الترويج للإسلام والعقيدة الإسلامية، ويتعرض لها الملايين من الأفراد ويتأثرون بها، ويندمجون فيها، فيتلقفونها بينهم وترسخ في عقولهم، حتى تتكوّن ثقافة جمعية تعادي الإسلام والمسلمين[١١٩].

---

[١١٦] محمد في مكة، مونتجمري وات، ص٩، ترجمة شعبان بركات، المكتبة العصرية، صيدا.

[١١٧] الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، د. محمود ماضي، ص٢٩، دار الدعوة، الاسكندرية، مصر ط/١/ ١٤١٦هـ.

[١١٨] رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر، ص٥٩-٦٠.

[١١٩] انظر: تشكيل الصورة النمطية عن الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي يامين بودهان، مجلة الوسيط للدراسة الإعلامية - دار هومة للنشر والتوزيع عدد (١٢)، ٢٠٠٦م، الجزائر، ص٥.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

خلاصة البحث وأبرز نتائجه.

١- مرّ المجتمع الغربي بالعديد من التغيرات الجوهرية في التفكير والتحولات في المعتقدات والقيم والعادات والتقاليد، وتوالت هذه التحولات في فصول تتفاوت في حدتها، حتى وصلت في نهاية المطاف إلى نبذ الدين، وما جاء به أو منه، وعزله عن مجال الحياة والتطبيق بعد أن كان الرائد والموجة، مما اضطر العالم الغربي في القرن الخامس عشر وما بعده أن يستغرق في البحث في مجالات عدة، ليسد الفراغ الذي تعيشه أوروبا بعد ذلك التحوّل.

٢- أدى انتشار الكتاب (المقدس) بين أيدي الناس- بعد ظهور الطباعة- إلى إزالة الوصاية الكنسية على فهم الدين، أوضح ذلك المؤرخ الإنجليزي (برتراند رسل) بقوله: "وبظهور الطباعة، اتسع نطاق تداول الأفكار الجديدة إلى حد هائل جداً، وهذا هو الذي ساعد -في النهاية- على هدم السلطات القديمة؛ وذلك لأن توافر الكتاب (المقدس) مطبوعًا بين أيدي الناس ومترجمًا إلى لغات محلية، قد أفسد على الكنيسة ادعاءها الوصاية على أمور العقيدة

٣- للمجامع الكنسية دور مهم في الصراع الذي مرّت به شريعة النصارى، بل وفي أصل عقيدتهم. حيث كان للمجامع النصرانية دور كبير في انحراف المسيحية.

٤- تُعدّ الحروب الصليبية حدثاً فاصلاً في الغرب الأوربي، حيث أثرت هذه الحروب في نظرة المجتمع الغربي للإسلام والمسلمين، فنُظِر إلى الإسلام باعتباره العدو اللدود للمسيحية والحضارة الغربية، وأصبح الإسلام من منظورهم يشكّل تهديداً لأوروبا، ويبث رعباً مخيفاً وهي نزعة متوارثة عن الحملات الصليبية.

٥- واقع الأوروبيين يدلّ على أنهم في مواقفهم ووجهات نظرهم تجاه القضايا، يفرقون دائما بين ما هو إسلامي وما هو غير إسلامي، مما أدى إلى ازدواجية المعايير لديهم وتناقضها، أحدهما: معيار أهل الإسلام، الذي يفتقر إلى العدل والإنصاف.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

المراجع:

المراجع العربية:

الوجيز في المذاهب الفكرية المعاصرة (عرض ونقد)، أحمد عبد العزيز الخلف، ص ١٤، مركز مطور للبحث العلمي، دار الأمام مسلم ط ١، ١٤٣٧، المدينة المنورة.
لسان العرب ابن منظور
موسوعة المورد العربية منير البعلبكي، ١/٨٤، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ،
التربية الأسرية في عصر العولمة، حمد بن عبد الله القميزي، جريدة الرياض، العدد ١٥٨٤٤.
الأسرة في الغرب: أسباب تغيير مفاهيمها ووظيفتها، دراسة تحليلية، خديجة كرار الشيخ طيب بدر، دار الفكر ٢٠٠٩.
الجانب المظلم في التاريخ المسيحي، للباحثة الغربية هيلين إيليربي، ترجمة سهيل زكار، دار قتيبة دمشق، ٢٠٠٥.
الأسرة في المجتمعات الغربية: إلى أين المصير، بشار محمد بكور، مجلة نهج الإسلام، مج (٣٧)، ع (١٤٢)، ٢٠١٦م،
تاريخ الفكر الأوربي الحديث، رونالد سترومبرج، ترجمة: أحمد الشيباني، دار القارئ العربي، ط٣، ١٤١٥، القاهرة،
فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني،
موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، ص ١٩٧ - ٢٠٣، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣م، دار العلم للملايين، بيروت.
المستشرقون نحيب العقيقي، (٩٠٦/٣)، الطبعة الثالثة، ١٩٦٤م، دار المعارف، مصر.
التعليقات النقدية على كتاب دراسات محمدية، ص ٣٣، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩م، مركز العالم الإسلامي لدراسة الاستشراق، لندن.
مفتريات على الإسلام، أحمد محمد جمال، الطبعة الرابعة، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤٠٥هـ،
الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الاستشراقية، ساسي الحاج.
الاستشراق والمستشرقون، مصطفى السباعي، ص٣٠ وأخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي، صابر طعيمة.
مستشرقون سياسيون جامعيون مجمعون، نذير حمدان
الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، د. مازن مطبقاني، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، مصر،١٩٩٥م.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

إنجازات مستشرق، ألبرت حوراني، ترجمة سلامة فوزي، مجلة الفكر العربي، العدد/٣١، ١٩٨٣م، السنة الخامسة، بيروت.
وجهة الإسلام، جب وآخرون، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة، المطبعة الإسلامية، القاهرة.
الإسلام والدعوات الهدامة، أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م.
مناهج المستشرقين ومواقفهم من النبي ﷺ عرض ونقد في ضوء العقيدة الإسلامية، رياض العمري، مركز تأصيل للدراسات والبحوث، ط١، ١٤٣٦هـ
الأعلام، خير الدين الزركلي، قاموس، تراجم لأشهر الرجال والنساء للعرب والمستعربين، المطبعة العربية القاهرة ١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م.
التعليقات النقدية على كتاب دراسات محمدية، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩م، مركز العالم الإسلامي لدراسة الاستشراق الندن.
الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، الدكتور إسماعيل علي محمد، دار الكلمة – المنصورة – مصر ط/ ٣/ ١٤٢١هـ.
مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس١٩٨٥م.
موقف الكنيسة الغربية من الإسلام ونبوة محمد ﷺ، راجح إبراهيم البساتين، المكتبة الوطنية، الأردن،٢٠١٠م.
الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة، محمد شريف الشيباني، الطبعة الأولى، دار الحضارة العربية، بيروت، ١٤٠٨هـ،
المستشرقون الناطقون بالإنجليزية دراسة نقدية، عبد اللطيف الطيباوي، ترجمة وتقديم: قاسم السامرائي، إدارة الثقافة والنشر، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١١هـ-١٩٩١م.
الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، د. محمود ماضي، دار الدعوة، الاسكندرية، مصر ط/١/ ١٤١٦هـ.
موقف المستشرقين من العبادات في الإسلام من خلال دائرة المعارف (الإسلامية)، محمد السرحاني، رسالة دكتوراه،
الدراسات الاستشراقية في ضوء العقيدة الإسلامية، زيد العبلان، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٠٦هـ.
تشكيل الصورة النمطية عن الإسلام والمسلمين في الإعلام الغربي يامين بودهان، مجلة الوسيط للدراسة الإعلامية - دار هومة للنشر والتوزيع عدد (١٢)، ٢٠٠٦م، الجزائر.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413

المراجع الأجنبية:

D.B. Macdonald. The Development of Muslim Theology, Juris ,prudence and Constitutional Theory. London1900., I'Arabie Henri Lammen -l avant I'Hegire occident Sufism Of Account of the Mystics of Islam. London,

George Allen& Unwin lt -J. Arbery, Pages from the Kitab Al Sarraj. London-Iuma, of Abu Nasr Al1947, Sufism An . Account of the Mystics of Islam. London, George Allen& Unwin ltd ,William Montgomery Watt. O.p. cit2.

ISSN: 2537-0405 eISSN: 2537-0413